جامعة قطر

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العـــدد السـادس عشــر

١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

«الضاد العربية : مثال للتطور الصوتي»

د. يحيى أحمد

قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الكويت

خلاصة :

يهدف هذا البحث إلى كشف حقيقة الضاد، ذلك الصوت العصي في اللغة العربية، فيبدأ بعرض وصف القدماء لهذا الصوت (ابتداء من القرن الثاني الهجري) ويقدم مجموعة من النصوص التاريخية يوثق من خلالها النطق القديم لذلك الصوت.

ثم يتتبع الكلمات التي احتوت على هذا الصوت والتي افترضتها لغات أخرى من العربية، فيلاحظ أن ما حدث فيها من تطوير يقدم سندا لصحة الوصف القديم.

ثم يستعرض البحث وجهات نظر الباحثين الغربيين الذين لاحظوا وجود صوت جانبي مفخم ينطق به أبناء اللغات الجنوبية المعاصرة، وخاصة في الكلمات التي تشتمل على ضاد عربية وللتأكد من هذا الجانب، فقد قام الباحث ببحث ميداني سجل خلاله كلمات مهرية يوجد فيها هذا الصوت، وطبع نماذج منها على جهاز مرسمة الأطياف الصوتية Spectograph ورأى ان المطابقة بين النطق العربي القديم كما وصفه سيبويه، والنطق العربي الجنوبي المعاصر تامة إلى حد مدهش.

وبتقديم هذه الأدلة التاريخية والمقارنة والوصفية يخلص الباحث إلى أن القدماء لم يخطئوا في وصف هذا الصوت، ولم يصفوا ما سمي الضاد الضعيفة (أي الضاد المولدة)، وإنما وصفوا وصفا صحيحا صوتا كان ينطق في فترة من

حياة اللغةالعربية . والتفسير الصحيح لاختلاف النطق القديم عن النطق الحديث هو أن الصوت قد تطور تطوراً جذرياً في اللغة العربية الفصحى .

١ — طبيعة المشكلة :

١/ ١ على الرغم من تأصل مناهج البحث التاريخي ومناهج البحث المقارن في الدراسات اللغوية المعاصرة إلا أن القارىء المتفحص يجد بين الفينة والأخرى عدم تطبيق لمبادئها أو عدم استغلال جيد لمناهجها . وذلك فيما يصادفه من كتابات عن بعض الظواهر المتعلقة بالعربية الفصحى . وفي هذه الظواهر المنظومة الصوتية للعربية . فقد وصف اللغويون العرب القدماء أصوات اللغة الفصحى وصفا دقيقا محكما في وقت لم تكن توجد فيه أجهزة معملية دقيقة تعين الباحث على إصدار الأحكام الدقيقة . وقد اعتمدوا في ذلك كلياً على حسهم اللغوي ومهاراتهم في الملاحظة . وقد كانت إنجازات اللغويين العرب في مجال الدراسات الصوتية مثار إعجاب لدى اللغويين الغربيين والمؤرخين لتاريخ الدراسات اللغوية . فوصف سيبويه ، مثلا ، للمنظومة الصوتية العربية يعد في نظر روبنز (Robins, 1967 : 98) «سباقا للدراسات الصوتية الغربية السابقة أو المعاصرة» . كما أن «إنجاز العرب في هذا الفرع من الدراسات اللغوية كان أنجح بكثير على مستوى الدقة الوصفية من إنجاز الإغريق والرومان(١) (Robins, op.cit. p. 99) .

ولست أريد بهذا أن أوحي للقارىء أن عمل القدماء كان متكاملا من جميع الوجوه ، فهذا ضد منطق التطور الفكري . ولكن أريد أن أوضح أن تعاملنا مع آراء القدماء في مجال الدراسات الصوتية على وجه التحديد ينبغي أن يكون على مستوى المكانة الرفيعة التي بلغوها في ذلك المجال . وأعتقد أن هذا مطلب منهجي وليس مطلبا أخلاقيا .

---

(١) كان الاستاذ روبنز يردد في محاضراته على الطلبة في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية SOAS (١٩٧٤) أن ما توصل إليه العلماء العرب في مجال وصف الأصوات في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) لم يصل إليه العلماء الغربيون إلا في القرن الثامن عشر تقريبا .

ولم يقتصر وصف القدماء على المنظومة الصوتية للغة الرسمية، أي الصوتيات أو الوحدات الصوتية الوظيفية في الفصحى، The Phonemic Inventory بل إنهم تطرقوا كذلك إلى ذكر حركات فرعية وأصوات «غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في قراءة الشعر» (الكتاب ٤/ ٤٣٢). (١) وهذه الأصوات تتراوح ما بين كونها صورا نطقية allophones أو أشكالا لهجية. أما وصف أصوات اللغة فق كان وصفا شاملا ودقيقا، بحيث إن هذا الوصف يصدق على عربيتنا المعاصرة فيما عدا أصواتا خمسة هي: الجيم، القاف، الطاء، الضاد والعين. (٢).

١/ ٢ ومنذ أن تنبه المستشرقون (أمثال بروكلمان، برغشترار، فلايشر وغيرهم) ومن بعدهم اللغويون العرب المعاصرون إلى مثل هذه الاختلافات، فإن الجدل لم يتشعب حول صوت من أصوات العربية مثلما تشعب حول صوت الضاد.

إن الحقيقة الواضحة التي يقبل بها جميع اللغويين العرب المعاصرين الآن هي أن صوت الضاد يختلف نطقه في عربيتنا المعاصرة عنه في العربية التي وصفها سيبويه. والضاد في العربية المعاصرة صوت لثوي ـ أسناني انفجاري مفخم مجهور. والضاد في العربية القديمة صوت لثوي ـ أضراسي(٣) احتكاكي مفخم مجهور، على نحو ما سنرى بالتفصيل فيما بعد. وقد كان من المنطقي في ضوء ما هو معروف عن القدماء من دقة ملاحظاتهم الصوتية أن يفسر اختلاف نطق الضاد في هذين المستويين من العربية على أنه نتيجة للتطور الصوتي. ونحن نجد بالفعل هذا النهج من التفسير في صياغاته الأولى عند إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥٠) ورمضان عبدالتواب (١٩٨٤ : ٦٤). ولكننا نجد من جانب آخر فريقا من الباحثين يظن أن القدماء ربما وصفوا الضاد المولدة لا الضاد الأصلية»

(١) تسهيلا للقراءة فسنختصر الإشارة إلى كتاب سيبويه (الكتاب) على نحو ما نهج منذ القدم. أما الطبعة المستعملة في بحثنا هذا فهي طبعة الهيئة المصرية للكتاب، بتحقيق الاستاذ المرحوم عبدالسلام هارون.

(٢) أهملت الإشارة إلى «الهمزة» لأن أمر الخلاف فيها غير ذي بال.

(٣) لم يرد هذا المخرج في جدول الأصوات الدولية، وقد استنتجته من خلاصة وصف سيبويه لهذا الصوت.

(كمال بشر ١٩٧٠ : ١٣٧). أو أن «وصف القدماء للضاد غير واضح . . يتسم بغير قليل من الغموض والتعقيد بحيث يحار المرء في فهم ما يقصدون على وجه الدقة». و«أن الضاد التي وصفها القدماء تمثل بالنسبة لنا صوتا مجهولا من الصعب تصوره». (الفرنواني ١٩٨٦ : ١١٠). ونجد كذلك من يقول: «ونحن لانعرف كيف كان ينطق هذا الصوت. ومن وصف اللغويين العرب يتضح لنا أنه صوت غريب جدا ولا يوجد له نظير في أية لغة إنسانية أخرى. حتى اللغات السامية (كذا!!). ولذلك اشتهر العرب بأنهم الناطقون بالضاد» (صلاح الدين حسنين ١٩٨١ : ٩٨).

فالقضية، إذن ليست بحاجة إلى مزيد من التوضيح بقدر ما هي بحاجة إلى الحسم. وسيكون من هدف هذا البحث التوصل إلى هذه الغاية. ولكي يكون من الميسور تحقيق هذه الغاية فقد رأيت من الضروري أن أوضح النطق القديم للضاد، وذلك بشرح مصطلحاته وعملياته النطقية، وخاصة ما يتصل منها بموضع اتصال اللسان باللثة والأضراس، وهذا ما يظهره جهاز «راسم الحنك الكهربي» Electro-palatograph الذي استعنت به في توضيح النطق الجانبي(١). واستعنت بجهاز مرسمة الأطياف الصوتية لبيان الحزم الصوتية المرتبطة بتردد نمطي typical frequency مع الأصوات الاحتكاكية. وقد كان من الممكن والحالة هذه أن نقارن بين النطق القديم والنطق العربي الجنوبي لكي نؤسس وجه الشبه بين النطقين. وأما بقية أجزاء البحث فالهدف منها تعضيد النطق القديم وتوضيح حقيقته اللغوية والتاريخية وكذلك تسليط الضوء على طبيعة التغيرات الصوتية.

٢ — التغير الصوتي :

٢/ ١ الكائنات الحية تتغير باستمرار، واللغة باعتبارها كائنا حيا تكون عرضة

(١) وصف النطق القديم واضح تمام الوضوح بالنسبة لي. أما كيفية أدائه فقد عولت فيه على مهارتي الشخصية وقدرتي على أداء الأصوات (السواكن والحركات) الواردة في جدول الأصوات الدولية، حيث إنني تلقيت تدريبا صوتيا مكثفا ضمن دراستي الأكاديمية في جامعة لندن.

للتغير. ويمكن اعتبار التغير من الخصائص المتأصلة في اللغة. فاللغة تتغير باستمرار، ولايمكن أن نتصورها في وضع سكون ولو للحظة واحدة. وعلى مستوى الأداء الفردي نجد أن نطقنا لجملة واحدة مرتين مختلفتين لن يكون متشابها في الخصائص الصوتية الطبيعية في كل مرة. إن النطق سيكون مختلفا مع كل أداء جديد، وهذا ما جعل بعض اللغويين المعاصرين : (Goyvaerts, 1975 87) يبالغ فيذهب إلى أنه «لايوجد شيى اسمه اللغة س أو اللغة ص، هناك فقط متكلمو لهجات خاصة يجمعهم قاسم مشترك كبير». والسبب الذي يجعلنا لانشعر بالتغير في كل لحظة هو الطبيعة البطيئة للتغير. وتعودنا على التغاضي عن الملامح الفائضة في النطق.

يطرأ التغير على اللغة بمختلف مستوياتها: المستوى الصوتي، المستوى الدلالي والمستوى النحوي ـ الصرفي. وليس هناك مستوى من مستويات اللغة يستطيع أن يستمر بمنأى كلي عن التغير. بيد جن التغير يطرأ على اللغة بدرجات متفاوتة. فنظرا لاختلاف عوامل التغير (الداخلية والخارجية) واختلاف خصوصيات وظروف كل لغة، فإن مستويات اللغة تكون عرضة للتغير بشكل متفاوت.

إن الدراسة التاريخية المقارنة ترينا أن هناك جوانب من اللغة تكون أبطأ من غيرها في الاستجابة لظروف التغير، ولو أخذنا كمثال من اللغة العربية المستوى الصوتي والمستوى الدلالي، فإن الملاحظة الدقيقة المدعمة بالأمثلة والوثائق(١) ترينا أن المستوى الدلالي في اللغة قد تعرض للتغير الملحوظ بشكل أوسع وأغنى مما تعرض له المستوى الصوتي في أمثلته المعروفة لنا. وهذا يعود إلى طبيعة الكلمة، حيث إن لها شكلا ولها مدلولا، ويتم الربط بينهما عن طريق الاتفاق العرفي في البيئة اللغوية. وهذه الطبيعة الثنائية للكلمة تمكننا من فصل الشكل عن المدلول الاشاري، فيصبح من الممكن عندئذ أن يطرأ التغير على الشكل أو

---

(١) أنظر بالنسبة لأمثلة التغيرات الدلالية (فايز الداية: ١٩٨٥) وللأمثلة الصوتية (كانتينو: ١٩٦٦) والمراجع المذكورة هناك.

على المدلول الإشاري بشكل منفصل (١). وربما يرجع ذلك (أي اختلاف حجم التغيرات الصوتية والدلالية) بالنسبة لمثال اللغةالعربية، إلى عامل التوثيق. فقد اهتم العرب باللغة الرسمية، لغة التنزيل والحديث النبوي والشعر والتاريخ، فدونوا معاني المفردات، وكانوا من أوائل من صنف المعجمات، ولم تحظ اللغة المحكية بنفس الاهتمام. وإشاراتهم المختصرة إلى بعض اللهجات العربية لم تأخذ نسقا منظما، ولم يكن القصد منها استخلاص الظواهر المتواترة وتدوينها وتقعيدها. أضف إلى ذلك ارتباط العنصر الدلالي باللغة في إطارها الاجتماعي والثقافي، وهذان الجانبان من الأمور التي تتغير بشكل طبيعي مع مضي الأيام، وهذا ما كان يقصده مارتينيه (Martinet, 1961: 135) حينما كتب قائلاً: «إذا كانت اللغات تتغير، ونحن نعرف أنها كذلك، فذلك راجع بالدرجة الأولى إلى أن احتياجات مستعمليها تتغير، وقد وجد أن هذا ينطبق على الأصوات والكلمات (المعجم) والنحو».

٢/ ٢ وعلى الرغم من صغر حجم التغيرات الصوتية بالقياس إلى التغيرات في المجال الدلالي. فاللغة العربية لغة مستعملة ومتداولة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا، والبيئة اللغوية العربية تمتد عبر مجال واسع من الأراضي، وقد تسربت إليها أو اندمجت فيها، منذ بدء انتشار الإسلام في العصور التالية، مجموعات سكانية لغتها الأم ليست العربية. وهذه العوامل مما تساعد على التغير وتهيىء له. أضف إلى ذلك أن العربية حملت في طياتها منذ العصر الجاهلي بذور التغيرات الصوتية وذلك عن طريق انتساب العرب لأصول قبلية مختلفة، حيث كانت لكل قبيلة ظواهر صوتية معينة، أثرت بشكل أو بآخر في النطق بالفصحى.

٣ — ما الذي يسبب التغيرات الصوتية ؟

٣/ ١ حينما نتفحص ذلك النمط من التفسير البنيوي الذي قدمه اندريه

(١) يجد القارىء في الفصل الثالث والرابع من كتاب جافيه (chafe, 1970) نقاشا مستفيضا لفكرة الطبيعة الثنائية للكلمة. ويبدو لي ان هذه الفكرة من الأفكار التي جاء بها من يسمون في الدراسات اللغوية التاريخية «النحاة الجدد»، انظر: (Jankowsky, 1972: 81) ولكن جافيه يعزوها لنفسه!.

مارتينيه (انظر Goyvaerts 1975: 67) فسنجد أنه يعول على العوامل الداخلية، بمعنى أن التغيرات الصوتية مرجعها طبيعة اللغة نفسها بحكم أنها كيان لها نظام. وكل كيان له نظام يحمل بين طياته بذور التغير ويوضح ليهمان Lehman (1962 : 176) طبيعة العوامل الداخلية التي يسميها «الضغوط النظامية الداخلية» (systemic pressures) فيقول إننا لايمكن أن نغزو التغيير إلى النظام نفسه، ولكن النظام يوجه التغيير. ويكون هدف التغيير عندئذ هو التوصل إلى نوع من الانسجام في النظام الصوتي.

ولكن مارتينيه في الواقع لايقصر التغير على العوامل الداخلية، فهناك عوامل خارجية تساهم في إحداث التغيير، والأمر يشبه، كما يقول عويفيرتس (نفس المصدر والصفحة)، كتلة الثلج التي تنهار، حيث إن محصلة العوامل المختلفة هي التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار. ومن أهم العوامل الخارجية التي لها صلة بموضوع بحثنا والتي يسمح المجال بذكرها هنا (انظر Goyvaerts 1975:72ff).

١ — اختلاط مجموعات سكانية بأبناء البلد الأصليين، بحيث تبدو التركيبة السكانية مزيجا من طبقات اجتماعية مختلفة. صحيح أن الضغوط الاجتماعية والحاجة إلى الاتصال تستدعي أن يتعلم المجموعات السكانية الوافدة النمط اللغوي النموذجي المستخدم في المجتمع، ولكن بعض العادات النطقية لاتكتسب بسهولة، وخاصة تلك التي ليس لها نظير في اللغة الأم.

٢ — مبدأ التيسير وبذل الحد الأدنى من المجهود. ويكون هذا العامل مسئولا في أغلب الأحوال عن تلك التغيرات الصوتية المتفرقة sporadic sound-shift مثل المماثلة والانسجام الحركي، وإسقاط بعض الأصوات أو ترخيمها أثناء النطق.

٣ — سوء الفهم، ويكون ذلك بجن بعض المتغيرات الصوتية تفهم بشكل خاطىء من قبل المستمع على أنها الأنماط الصحيحة المقبولة ومع تكرار الاستعمال يشيع النمط الخاطىء في الكلام، ثم يتأصل ليصبح جزءا من اللغة.

ولايحدث التغير الصوتي في مثل هذه الحالة بشكل منفرد. وإنما يكون ضمن النظام اللغوي.

٣/ ٢ وقد تعرض دوايت بولينجر (Bolinger 1980: 40) للعوامل التي تسبب فقدان الصوت من المنظومة الصوتية فذكر العوامل التالية:

١ — أن الصوت قد لايكون قويا ومن ثم فإنه من السهل على الأطفال تجاهله ابتداء. وذلك مثل الصوت (h) الذي فقد من بعض اللهجات الاسبانية فقدانا تاما. وفقد في الإنجليزية في الضمير (it) حيث أن أصله التاريخي هو (hit).

٢ — أن فقدان الصوت يحدث عادة حينما يكون التأثير واقعا على عدد محدد من الكلمات.

٣ — حينما يشبه صوتا آخر شبها قريبا فيتداخل الصوتان. وهذه الحالة تنطبق على صوت الضاد العربية القديمة وصوت الظاء، كما سيمر بنا فيما بعد.

٣/ ٣ يتضح من الأفكار التي قدمناها عن التغيرات الصوتية، أن هذه التغيرات تأتي نتيجة لعدة عوامل (داخلية وخارجية) وليس لعامل واحد معين. وقد يحدث أن تتضافر هذه العوامل — بشكل معقد — في إحداث تغير صوتي معين. وأنا أقترح الأخذ بمثل هذا النمط من التفسير بالنسبة للضاد العربية.

ولتكن الخطوة التالية إذن هي النظر في الوصف القديم لصوت الضاد لنتعرف على الصفات المميزة لهذا الصوت وكيف تغيرت فيما بعد.

٤ — كيف كانت تنطق الضاد القديمة؟

٤/ ١ سنتخذ وصف سيبويه أساسا نقيس به النطق القديم، وذلك لأن وصف سيبويه يعد أقدم وصف وأضبط وصف، والذين جاءوا بعد سيبويه اتخذوا هذا الوصف أساسا، ولم يضيفوا إليه إضافات جوهرية. (١)

(١) قارن ـ مثلا ـ تعريف سيبويه الآتي ذكره بالتعريفات التالية:
ابن جني: سر صناعة الاعراب.
ابن يعيش: شرح المفصل.
ابن الجزري: النشر في القراءات العشر.

يحدد سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٣) مخرج الضاد على أنه «من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس». والضاد عنده تلي الجيم والشين والياء. وإذا حاولنا أن نبحث عن مصطلح صوتي حديث لهذا المخرج فهو: «لثوي - أضراسي» حيث إن الجيم والشين أصوات لثوية ـ حنكية، والمخرج التالي لهذه المجموعة من الأصوات هو اللثة والأضراس.

٤/ ٢ يتحدث سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٤) عن الصوت الشديد فيصفه بأنه «الذي يمنع النفس أن يجري فيه». ويذكر من أمثلة الصوت الشديد الأصوات التالية: الهمزة، القاف، الكاف، الجيم، الطاء، التاء، الدال، الباء.

ويتحدث عن الصوت الرخو (الكتاب ٤/ ٤٥٣) فيلاحظ أنه الصوت الذي يمكن إجراء النفس فيه. ويعدد الأصوات الرخوة فيذكر القائمة التالية: الهاء، الحاء، الغين، الخاء، الشين، الصاد، الضاد، الزاي، السين، الظاء، الثاء، الذال، الفاء.

يتضح من هذه الأمثلة أن الصوت الشديد هو الصوت الذي ينحبس معه تيار الهواء لالتقاء عضوي النطق التقاء محكما، أما الصوت الرخو فلا ينحبس في نطقه تيار الهواء، وذلك لأن عضوي النطق يلتقيان التقاء غير محكم، فيسمح للهواء بالمرور من خلال مجرى ضيق.

وفي الدراسات الصوتية المعاصرة يستعمل مصطلح «صوت انفجاري» في مقابل المصطلح الأول، ويستعمل مصطلح «صوت احتكاكي» في مقابل المصطلح الثاني. ويبدو لي أن هناك فرقا طفيفا بين المصطلحين القديمين اللذين استعملهما سيبويه والمصطلحين الحديثين، فمصطلحا سيبويه مبنيان على أساس نطقي articulatory basis، أي أنهما يشيران إلى كيفية نطق تلك الأصوات، بينما المصطلحان اللذان استحدثهما المعاصرون مصطلحان سمعيان auditory basis أي أنهما يشيران إلى الاثر السمعي الذي تحدثه تلك المجموعة من الأصوات. وهذه التفرقة، إن قبلنا بها، سيكون لها أثر في مجموعة الملامح المميزة

distinctive features التي نختارها، ولاتؤثر بأي حال من الأحوال فيما نحن بصدد ذكره في هذا البحث. ولذلك فسأستعمل المصطلحين «صوت احتكاكي» و«صوت انفجاري» في معناهما الشائع، أي دلالتهما على كيفية النطق، من غير تحميلها أية ظلال من المعاني الجانبية.

٤/ ٤ ويصف سيبويه الضاد بأنها مجهورة. ومصطلح الجهر بحاجة إلى وقفة قصيرة في هذا السياق. يصف سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٤) الصوت المجهور على النحوالتالي: «المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت». والأصوات المجهورة في نظامه هي: الهمزة، الألف، العين، الغين، القاف، الجيم، الياء، الضاد، اللام، النون، الراء، الطاء، الدال، الزاي، الظاء، الذال، الباء، الميم، الواو.

ولكي تكتمل الصورة دعنا نورد تعريفه للمهموس (الكتاب ٤/ ٤٣٤): «المهموس حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرت فرددت الحرف مع جري النفس، ولو أردت ذلك في المجهورة لم تقدر عليه». والأصوات المهموسة التي يوردها سيبويه بعد هذا التعريف هي: الهاء، الحاء، الخاء، الكاف، الشين، السين، التاء، الصاد، الثاء، الفاء.

والواقع أن وصف سيبويه لمعنى المجهور والمهموس بحاجة لمزيد من الشرح والتفسير، وسأعرض فيما يلي وجهتي نظر مختلفتين.

٤/ ٤/ ١ أول ملاحظة يمكن تسجيلها هنا هو ان التعريفين السابقين لم يحظيا بشرح كاف أو بتعقيبات مفيدة من قبل اللغويين العرب القدماء. لقد اقتصر الأمر على مجرد ترديد عبارات سيبويه. ونجد عند إبراهيم أنيس «١٩٦١ : ٩٢) محاولة جادة لشرح تعريف سيبويه.

يتوقف إبراهيم أنيس عند عبارتين في تعريف سيبويه الآنف الذكر محاولا إبراز ما فيهما من معان. والعبارة الأولى هي: «إشباع الاعتماد»، فيرى أن المراد

بها هو وصف «المجهور بأنه صوت متمكن مشبع فيه وضوح وفيه قوة، وتلك هي الصفة التي يشير اليها الأوروبيون بقولهم sonority . فالمجهور أوضح في السمع من نظيره المهموس، لانزاع في هذا، وليس للاعتماد معنى في كلام سيبويه سوى عملية إصدار الصوت».

ومشكلة هذا التعليل تكمن في كيفية استخدام إبراهيم أنيس لمصطلح «الوضوح».

ولكي نتحقق من صحة هذا التعليل علينا أن نلقي نظرة متفحصة على هذا المصطلح كما هو مستعمل في الدراسات الصوتية. يقول لاديفوغد (ladefoged 1975:239) «إن الوضوح في الصوت هو مقدار علوه بالقياس إلى أصوات أخرى لها نفس الطول والنبر والدرجة». وبناء على هذا التعريف، يتضح أن «الحركات عموما أكثر وضوحا من السواكن» (Gimson 1970:225).

أما السواكن فالواضح منها ـ تحديدا ـ هي تلك التي تشبه الحركات، وهي م ـ ن ـ ل ـ ز (ladefoged 1975:239) والأصوات المجهورة وجميع الأصوات المهموسة لها وضوح قليل (ladefoged op.cit).

نستخلص مما سبق ذكره أن الوضوح خاصية طبيعية في الصوت ينشأ عنها أثر سمعي ملحوظ. ولذلك فإن منشأ الوضوح هي طبيعة الصوت وليس كيفية نطق المتكلم له. وبهذا فإن الأصوات المجهورة ليست أقوى الأصوات في سلم الوضوح، ولكنها بالمقارنة مع الأصوات المهموسة، قد تبدو أكثر وضوحا. إذن ففهم إبراهيم أنيس لعبارة سيبويه لايعتبر دقيقا في جميع جوانبه، وتظل العبارة بحاجة إلى شرح أكثر.

أما العبارة الثانية التي يتوقف عندها إبراهيم أنيس فهي قول سيبويه «منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه». ويعقب عليها المؤلف قائلا (١٩٦١ : ٩٣): «ومعنى هذا في رأيي ان الحس المرهف لسيبويه جعله يشعر مع المجهور باقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر حتى ليكادان يسدان

طريق التنفس إلى الانـدفاع من بينهما في قـوة تحرك الوتـرين الصوتيين، وتجعلهما يتـذبذبـان، ويظـلان يتـذبذبـان حتى ينقضي الاعتماد، أي حتى تنتهي العمليـة العضلية المطلوبة في إصدار الصوت».

وأوضح من هذا الشرح أن إبراهيم أنيس فهم عبارة سيبويه السابقة أنها تعني اهتزاز الأوتار الصوتية أو عدم اهتزازها، أي عملية التصويت نفسها Voice . ويترتب على هـذا الشرح أن نفهم الجهر على أنـه صفة نطقيـة ـ طبيعيـة، وليس صفة سمعية ـ إنطباعية ـ auditory impressionistic .

٤/ ٤/ ٢ وفي مقالة للغـوي المعاصر حاييم بلانـك نشرت سنة ١٩٦٧، نجد نقاشـا مثمرا للفكـرة موضوع حـديثنا في هذا القسم . . يبـدأ بلانك حـديثه من خلال فكـرة طرحهـا ياكبسـون عرضـا في نهاية مقـالته المشهورة عـن الأصوات المفخمـة في اللغة العـربيـة (Jakopson 1957:519) حيث يـرى أن التفرقـة بين المصطلحين «المجهور» و«المهموس» كان يقصد بها التفرقة بين نمط للنطق القوي Fortis «أي قـوي» في مقـابـل نمط للنطق الضعيف (Lenis) «أي ليِّـن»، ولم يكون المقصـود بهما وجود الصـوت أو عدم وجـوده(١). والذي يبـدو واضحا لكـلانك أن تعريـف سيبويـه للمجهـور والمهموس يتضمن إشـارة لقـوة النطق وضعف النطق، على التوالي. ولـذلك فهو يفسر «إشبـاع الاعتماد» على أنه يعني الاتصال، أي اتصال عضوي النطق. ويترجم بلانـك تعريف سيبويه للمجهور بما يتـلاءم وفهمـه له فيبـدو على النحـو التـالي (Blance 1967:298) «المجهور صـوت يكون فيـه الاتصال بمـوضع النطق اتصالا كـاملا فيمنع ذلك حـدوث النفس أو جـريان النفس معـه حتى ينفـرج عضوا النطق ويحدث الصـوت المراد إنتاجه». ويعيد صياغة تعريف المهموس على هذه الشاكلة «المرجع السابق، ص ٢٩٩» : «المهموس صوت يكون فيه الاتصال بمكان النطق ضعيفا فينساب معه النفس، وتستطيع ان تعـرف ذلك بأن تردد صـوتا من هـذا الصنف مع جريـان

---

(١) يبدو لي أن هـذا التعليل يعول على مفهـوم «الشدة» intensity ، الذي يعتبر مسلكـا نطقيا مـرجعه النـاطق وليس الصوت نفسه.

النفس. ولو حاولت هذا الشيء مع صوت مجهور فلن تنجح في الأداء».

ويرجح بلانك أن يكون هذان المصطلحان قد استعملا بالدرجة الأولى إشارة إلى الأصوات الانحباسية، وذلك من قبيل التعميم في استعمال المصطلح. فسيبويه على الرغم مما عرف عنه من دقة التعبير، وأن عباراته نادرا ما تكون خاطئة، يلجأ في بعض الأحيان إلى استعمال تعبيرات لاتصدق بحرفية تامة على جميع جزئيات الظاهرة التي يصفها.

فكأنه بذلك يترك تقدير الحالات الاستثنائية لحصافة القارىء. من ذلك، مثلا، أنه في إشارته إلى ظاهرة القلقلة يتحدث عن «صويت» يخرج من الفم، مرتبط بالتباعد السريع للسان عن مكان النطق: «... فإذا وقفت خرج معها صويت ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة.. القاف والجيم والطاء والدال والباء». (الكتاب ٤/ ١٧٤).

ولاشك أن سيبويه يعرف تمام المعرفة أن الباء صوت شفتاني وأن اللسان لايلعب أي دور في إنتاجه. ولكنه استعمل مصطلح «نبو اللسان» لأنه الصفة الغالبة لبقية أصوات القلقلة، واعتمد على بديهة القارىء في استثناء الباء من الوصف العام.

كذلك نجد في وصف سيبويه للمجهور ذلك التعريف العام الذي أوردناه فيما سبق. «المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه»، وهو يدخل ضمن أفراد المجموعة، كما رأينا، الواو والباء والألف. وسواء اعتبرنا هذه الأصوات الثلاثة حركات طويلة صرفة أو أشباه حركات أو حركات مركبة، بناء على وظيفتها الفنولوجية، فإن طريقة نطقها تتسم، كما نعرف، بتابعد عضوي النطق. وسيبويه نفسه يطلق على الواو والياء مصطلح (أصوات اللين): «لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما (الكتاب ٤/ ٤٣٥). ويستعمل مصطلح (الهاوى) في صفة الألف لأنه «حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع الياء والواو» (الكتاب ٤/ ٤٣٥).

ولـذلك لايمكن أن يصـدق وصف إشبـاع الاعتماد على هـذه الأصـوات الثلاثة . إلا ان وصف سيبويه العـام يترك للقارىء الملم بمجمل وصفه استنتاج مثل هذه الحقائق .

٤/ ٤/ ٣ أما فيما يختص بعبارة «منع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه» فإن بـلانك بلانك يفسرهـا على أنها تعني وجود النفس Whisper أو عدم وجوده أثناء النطق بالصوت . فالأصوات المهموسة تسمع مهموسة سواء نطقت بصوت عال أم نطقت إسراراً Whispered . أما الأصوات المجهورة فلا يمكن أن تكـون مجهـورة إلا حينما تنطق بصـوت عـال أو بشكل واضح . وإذا نطقت الأصوات المجهـورة إسرارا فسنحصل على نتيجة مختلفـة : أصوات سلـب منها الجهر بشكل كلي أو بشكل جزئي . ولـو أعدنا صياغة هذه الحقيقـة فبإمكاننا أن نقول أن المهموس صوت يمكن الإسرار به (أوالهمس به)، وأن المجهور صوت يمكن الجهـر بـه، أي التكلم بـه بصـوت عـال أو واضح . وإذا تأملنـا تعـريف سيبـويـه للمهمـوس «أنظـر الفقـرة ٣/ ٤ مـن هـذا البحث» فسنجـد الإشـارة الواضحة إلى هـذه الحقيقة : «المهموس حرف أضعف الاعتماد في مـوضعه حتى جـرى النفس معـه، وأنت تعـرف ذلك إذا اعتبرت فـرددت الحرف مع جـري النفس (يقصـد الإسرار أو الهمس ي . أ» ولـو أردت ذلك في المجهـورة لم تقـدر عليه (يقصـد بعدم الاقتدار أنك لن تستطيع المحـافظة على صفة الجهـر عندئذ، لأن الصوت سيكون مسلوب الجهر ي . أ» .

٤/ ٤/ ٤ يتضح من هذا العرض أن سيبويه يتخذ «وجود النفس» معيارا مهما في التفرقة بين المهموس والمجهور . ويبدو أن سيبـويه طبق هذا المعيار في تصنيفه للقاف والطـاء مع الأصوات المجهورة كـالدال والباء والجيم . فهـذه الأصوات تشترك في كونها غير مصحـوبة بنفس . واتصـال اللسان بمـواضع نطقهن يكون محكما، ويظل مجرى الهواء مسـدودا، ولايجري النفس إلا بعد ابتعاد اللسـان عن نقطـة الاتصـال(١) . أمـا الكـاف والتـاء فـوجـود النفس معهما واضح تمام

(١) فيما يختص بصـوت الجيم، تجدر الإشـارة هنا إلى أن هـذه الصفـة النطقيـة تنطبق على الجيم العـربية، كما وصفهـا سيبويه، وليس على الجيم العربية في الصصحى المعاصرة .

الوضوح.

وحينما يعالج سيبويه ظاهرة الوقف نجده يوظف المعيار السابق على أساس كونه ملمحا مميزا Distinctive feature في نظامه الصوتي. فالوقف، كما يوظفه سيوبه، عبارة عن ظاهرة صوتية اختبارية يلجأ اليها المتلكم. وهي في إطارها العام عبارة عن حذف حركة آخر صوت في الكلمة.. ولكن سيبويه يتناول جوانب أخرى من الوقف كطبيعة الحركة التي تعقب الوقف. والوقف قد يحدث م الأصوات الشديدة أو الرخوة، المهموسة منها والمجهورة على نحو ما هو مفصل في الكتاب. ولكن ما يعنينا في هذا المقام هو المسلك الصوتي المختلف للأصوات المجهورة والمهموسة في حالة الوقف. فالأصوات المجهورة حينما نقف عليها نسمع معها صوتا مجهورا خفيفا، وهو في رأيي حركة مركزية وسيطة غير منبورة، أي ما يرمز له في جدول الأصوات الدولية بالرمز / هـ/. وهذا الصوت ينشأ نتيجة لتحرك اللسان جزئيا في موضع الاتصال لتحقيق النطق. يقول سيبويه (الكتاب ٤/ ٧٤) : (واعلم أن من الحروف حروفا مشربة ضغطت من مواضعها (اتصل اللسان بموضع النطق اتصالا محكما ي. أ) فإذا وقفت خرج معها من الفم صوت ونبا اللسان عن موضعه. وهي حروف القلقلة وذلك القاف والجيم والطاء والدال والباء». ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأصوات المهموسة. فالانطباع السمعي للوقف في هذه الحالة هو شيء يشبه «النفخ». وهذه الكلمة يستخدمها سيبويه للإشارة إلى ما يصحب المهموس من نفس. ولنقرأ فيما يلي عبارته فهي أوضح من أن تحتاج إلى شرح (الكتاب ٤/ ١٧٥) : «وأما الحروف المهموسة فكلها تقف عندها مع نفخ، لأنهن يخرجن مع التنفس لا صوت الصدر، وإنما تنسل معه. وبعض العرب أشد نفخا، كأنهم الذين يرومون الحركة فلابد من النفخ، لأن النفس نسمعه كالنفخ».

٤/ ٥ ويضيف سيبويه إلى الضاد صفة الإطباق (الكتاب ٤/ ٤٣٦) : «فأما المطبقة فالصاد والضاد والطاء والظاء». ويصف ظاهرة الإطباق وصفا دقيقا

فيقول : «وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حازى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف».

وهذا الوصف الذي يتفق مع ما توصل اليه المحدثون (انظر : Jakobson 161 : 1957) حيث يتضح من صور الأشعة للحنجرة أثناء النطق بالأصوات المفخمة في اللغة العربية أن اللسان ينجذب إلى الخلف مع ارتفاع مؤخره تجاه الحنك، بينما يتخذ وسطه شكلا مقعرا فتصبح مساحة التجويف الحلقي ضيقة. ويؤدي هذا الوضع النطقي إلى توتر عضلات منطقة الحنجرة، ولذلك لايكون من الممكن أن ننطق بصوت مفخم دون أن تكون الحركة التالية له مفخمة أيضا، حيث إن اللسان يحتاج لمقطع واحد على الأقل لكي يرجع إلى الوضع السابق للتفخيم. والتفخيم صفة تمييزية فارقة لمجموعة من الأصوات وردت في عبارة سيبويه المشهورة (الكتاب ٤/ ٤٣٦) : «ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً والصاد سينا والظاء ذالاً ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شيء من موضعها غيرها». أي ليس هناك نظير مرقق للضاد (الجانبية) في اللغة العربية. وسنعرف فيما بعد أن هناك لغات لاتستعمل إلا النظير المرقق لهذا الصوت.

٥ — صفة الرخاوة والنطق الجانبي للضاد :

٥/ ١ بذكر صفة الرخاوة والنطق الجانبي يكتمل وصف الضاد. وهاتان الصفتان متلازمتان هنا، وهما اللتان ساهمتا بشكل أساسي في خلق الاضطراب الذي نشأ حول نطق الضاد قديما وحديثا. فالضاد القديمة كانت صوتا احتكاكيا (أي رخوا) لاينحبس أثناء النطق بها تيار الهواء، بل يظل مستمرا من خلال تلامس الجانب الأيمن للسان بالأضراس العلوية. فيكون مخرج الهواء من الجانب الأيمن اللسان. ويمكن أن يكون من الجانب الايسر ولكنني اجد الجانب الأيمن أسهل في التنفيذ. فنطق الضاد كان جانبيا بهذا المعنى. والفرق

بينهما وبين اللام أن الأخيرة يتم نطقها بأن تصل طرف اللسان باللثة فينغلق مجرى الهواء من الوسط ولكن يتزامن مع ذلك تسرب الهواء من جانبي اللسان وليس من جانب واحد. فاللام صوت جانبي كذلك ولكنه غير مفخم. قارن أشكال (١) و (٢) و (٣) التي تبين موضع اتصال اللسان باللثة أو الحنك في نطق الضاد الانفجارية والضاد الجانبية واللام. وسنحاول فيما بعد أن نشرح الأسباب التي أدت إلى الاضطراب الذي نشأ حول الضاد. ولكن نريد قبل ذلك أن نوضح النطق الاحتكاكي والجانبي لنرى مدى وضوح هذه المسألة في كتب القدماء.

٥/ ٢ هناك جملة إشارات وردت في مواضع متفرقة من الكتاب، ونجملها فيما يلي:

١ — يصف سيبويه مخرج الضاد فيقول (٤/ ٤٣٣): «ومن بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد». والملم بأسلوب سيبويه في الوصف يجد هذا الوصف واضحا، ولكن الوصف كان سيزداد وضوحا لو أنه أشار إلى نقطة التقاء حافة اللسان بسقف الفم، كأن يقول مثلا: من الحنك (الصلب) بينه وبين أول حافة اللسان الخ. وينبغي أن نفهم مصطلح (حافة اللسان) على أنه يعني مقدمة اللسان أو وسطه Front of tongue ، لأن سيبويه يستخدم مصطلحا آخر وهو (أدنى من اللسان) وهو يعادل مصطلح المحدثين Tip of the tongue، أي طرف اللسان.

٢ — يأتي سيبويه على ذكر الأصوات الرخوة فيعدد منها «الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء» (الكتاب ٤/ ٤٧٠).

٣ — ويكرر ذكر صفة الرخاوة للضاد في موضع آخر، فيبين أن الضاد مطبق ورخو مثل الظاء والصاد (الكتاب ٤/ ٤٦٥).

٤ — وفي معرض حديثه عن الصيغ النطقية لكلمة (اضطجع) يذكر أن البعض يدغمون فيقولون (مضجع)، والبعض الآخر (مطجع) وهنا يلاحظ

سيبويه وجود فرق بين الضاد والطاء، ويشير إلى هذا الفرق بقوله : «ولم تكن الطاء في السمع كالضاد» (الكتاب ٤/ ٤٧٠). لأن الأول شديد والأخير رخو.

٥ — في باب الإدغام يتحدث سيبويه عن (لام المعرفة)، يقصد (أل التعريف)، وحالة إدغامها في الأحد عشر صوتا من أصوات طرف اللسان وهي : النون، والراء، والدال، والتاء، والصاد، والطاء، والزاي، والسين، والظاء والثاء، والذال.

ثم يضيف إلى المجموعة صوتين آخرين لايتضمنان طرف اللسان فيقول (الكتاب ٤/ ٤٥٧) : «واللذان خالطاها أي خالطا اللام ي. أ» : الضاد والشين، لأن الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام. والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء».

وهنا نلاحظ أن سيبويه قد استخدم مع الضاد مصطلح الاستطالة.. وفي موضع آخر يشير إلى نفس الحقيقة فيقول (الكتاب ٤/ ٤٣٢) : «وأنها (أي الضاد) تخالط مخرج غيرها بعد خروجها فتستطيل حين تخالط حروف اللسان».

ويكرر سيبويه استعمال هذا المصطلح مع صوت آخر هو الشين فيقول (الكتاب ٤/ ٤٤٨) : «لأن الشين استطال مخرجها».

والاستطالة هنا ليس مقياسا نوعيا بل مقياس كمي. ولذلك يمكن اعتبارها من الملامح ما فوق التركيبية supra seqmental feature . ويصدق على المصطلح عندئذ تفسير هنري فليش له (Fleisch 1965 : 75) من أنه لايعني الطول Length وإنما يعني التطويل Lengthening . أي أن الاستطالة ليست صفة طبيعية ملازمة لمكان نطق الصوت، وإنما هو شيء يحدث للصوت (الضاد والشين على وجه التحديد في نظام سيبويه) من بعد النطق به. وذلك بأن يلجأ المتحدث إلى إطالة النفس.

٦ — في باب الوقوف ترد إشارة عابرة إلى مخرج الضاد (الكتاب ٤/ ١٧٤) : «والضاد تجد المنفذ من بين الأضراس». ويقف سيبويه عند هذا الحد،

ولايستطرد في بيان كيفية تنفيذ الضاد من بين الأضراس، وذلك كما فعل مع ما سماه بـ (الضاد الضعيفة) . حيث إنه يتوقف وقفة طويلة عند هذا الصوت الذي يعده من الحروف غير المستحسنة في العربية، والتي لاتستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر. يقول سيبويه (الكتاب ٤/ ٤٣٢) : إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن. وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين، وهي أخف لأنها من حافة اللسان، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها. فتستطيل حين تخالط الحروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن، ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن».

هذا وصف واضح ومطول، لانجد له مثيلا لأي صوت آخر في الكتاب ولكنه مع ذلك يركز على جانب واحد من المشكلة وهو كيفية أداء الضاد الضعيفة. وخلاصة كلامه في ذلك أن الضاد الضعيفة من طرف اللسان وهي صوت مطبق، ويمكن أداؤها (تكلفها) من الجانب الأيمن أو من الجانب الأيسر للسان لأن العملية النطقية سيان في الجهتين فأنت تقوم بمجرد نقل لموضع النطق من جهة اليمين إلى جهة اليسار. ولكنها أخف أي أسهل في الأداء في الجانب الأيسر وأن إنجاز الضاد الضعيفة في الجانب الأيسر أسهل أداء لأن مخرجها من حافة اللسان، ولأنها صوت رخو، فيمكن بعد خروجها «أن تخالط مخرج غيرها» أي تندمج مع أصوات أخرى، وحينما يحدث هذا الاندماج مع «حروف اللسان» خاصة، أي الأصوات الأمامية، فإنها «تستطيل» أي أن نطقها يطول أكثر بمعنى أن الفترة الزمنية المطلوبة لنطقها تصبح أطول. وحينما يكون الأداء من الجهة اليسرى، يحدث للضاد الضعيفة مثلما يحدث لها في الجهة اليمنى، أي أن الهواء «ينسل» (يتسرب) من جانب اللسان حتى تنتهي العملية النطقية المطلوبة لنطق الضاد باتصالها بأصوات أخرى.

هـذا ملخص ما ذكـره سيبويـه عن الضاد الضعيفـة . والكاتب يتمنى لـو أن سيبويه كان قد عقد مقارنة بين الضاد الضعيفة والضاد الفصيحة . ولكنه لم يفعل ذلك . والسؤال المهم الآن هو : مـا هذا الصوت الذي يصفه سيبـويه هنا؟ يجب أن نقرر بادىء ذي بـدء أن سيبويه يصف هنا صوتا غير صـوت الضاد الفصيحة التي مـر بنا وصفهـا . وهـذه الملاحظة مهمـة لأن الضـاد الفصيحة تمثل وحـدة صوتية Phoneme في المنظومـة الصوتية للغـة العربية بينما تمثل الضـاد الضعيفة صورة نطقية allophone غير مرغوبـة في النطق الفصيح . وقد أخطأ المستشرق كـورينتــه (Corriente 1978 : 51) حينما استعـار مصطلح الضــاد الضعيفـة واستعمله وصفا للضـاد الفصيحة . بعد هذا أقول إنه من الـواضح لي أن سيبويه يصف في هذا النص صورة نطقية للضاد الفصيحة . وإذا حاولنا أن نطبق وصف سيبويه فننتـج ضادا أخرى بالصفة التي ذكـرها سيبويه وفي نفس مـوضع الضاد الفصيحـة ، فلن يكون هـذا الصوت غير ضـاد سلب منهـا الجهر . وبهذا تكـون الصورة النطقية التي وصفها سيبويه وسماهـا (الضـاد الضعيفة) هو هذا الصوت مضافـا إليه صفة الإطباق ، وهـو صوت يشبه صوت الضـاد الفصيحة من جميع الأوجـه فيما عـدا صفـة الجهــر والهمس ، حيث إن الأول مهمـوس بينما الاخير مجهور .

والجدير بـالذكر أن الكتـاب المتأخرين الـذين نقلوا عن سيبويـه كيفية وصف الضاد أشاروا إلى أن تنفيذ النطق عنده يكون من الجانب الأيمن للسان أو الجانب الأيسر . وقـد تطـورت دلالة مصطلـح (الضاد الضعيفـة) . فقـد استعمل هـذا المصطلح فيما بعد للإشارة إلى الضاد التي تحولت إلى ظاء .

٧ — يتحدث سيبويه في آخر ثـلاث صفحات من الكتاب عن بعض المظاهر النطقية غير المطـردة عند العـرب ، ويذكـر من ذلك إبدال الضـاد لاما : «ومثل ذلك قـول بعض العرب الطجع في اضطجع ، أبـدل اللام مكـان الضاد كـراهية التقـاء المطبقين ، فأبدل مكـانها أقـرب الحروف منهـا في المخرج والانحـراف» . (الكتاب ٤/ ٤٨٣) .

وهـذا مثـال مهم لتـوضيح النطق الجانبي للضـاد، حيث ينص سيبـويـه على الطبيعة الانحرافية للضاد بتشبيهها لها بـاللام. بيد أن تعليل سيبويه لسبب إبدال الضاد لامـاً تعليل غير دقيق، فالتقـاء المطبقين ظاهـرة شائعـة في اللغة العـربية. أضف إلى ذلك أن هذا المثـال ليس هو الـوحيد من نوعـه في اللغة العربيـة. هناك عـدة أمثلة أخرى للتبادل ما بين الضـاد واللام، اجتهـد الاسـتاذ كورينتيه (Co-riente 1978:52 ff) أستاذ الدراسات العربية في جامعة سراقوسا، فجمع منها النماذج التالية(١).

(أ) الضاد / اللام في بداية الكلمة (٢)

لبج : وقع على الأرض	ضبيج : أوقع بنفسه على الأرض
ضيعا لبعا (بالاتباع) أي سدى	
لحلح : تزحزح	ضحضح : تبين، ترقرق
لخ : امتلأت (العين بالدموع)	ضخ : تنساب الدموع
لز : وصل	ضز : لزوم الحنك الأعلى بالأسفل إذا نطق الرجل
لعز : كناية عن الجماع	ضعز : الوطء الشديد
لعلع : ضعف من مرض	ضعضع : خف أو ضعف من مـرض أو حزن
لغد : حبس	
لغى : قا ل كلاما غير مفيد	ضغد : عصر (حلقه)

(١) يلاحـظ أن معاني بعض الكلمات التي بـالضاد تختلف عن تلك التي بـاللام، بينما البعض الآخـر منها تكـاد تكون مترادفة، وربما كان سبب اختـلاف المعاني في الحالة الأولى هو أنه لما استقلت الكلمـة بنطقها المختلف، اقترن استقلالها الصوتي بمعنى مستقل ملاءمة مع النطق الجديد.

(٢) أورد كـورنيته معـاني المفـردات بالفـرنسيـة، مستعينا بمعجم كـازمنسكى Kaziminiski المسمى Dictionnaire Arabe Francais وقد وجدت أن المعاني غامضة في بعض الأحيان وغير مفهومة في أحيان أخرى، فرأيت أن أتحقق من معاني الأمثلة المذكورة بالرجوع الى (اللسان) و (المعجم الوسيط) والمعاني المذكورة هنا مأخوذة من هذين القاموسين.

لف : (لاف القوم) : اختلطوا
واللفيف : القوم المجتمعون
ويقال : فلان من لفيفنا وضفيفنا
لك (لكه) : غمزه
لم : احتضن
لمز : عاب
لهب (ألهب النار) : أشعلها
لهد : دفعه في صدره دفعا شديداً

ضغى : صاح من الألم
ضف (القوم) : اجتمعوا وتزاحموا.
نضمه إلينا اذا حزبه أو حزبنا أمر.
ضك (ضكة) : ضغطه، غمزه
ضم : احتضن
ضمزه : عابه
ضهب (اللحم بالنار) لوحه
ضهد : أذل

(ب) ض / ل كثاني صوت في الكلمة

أل : صرخ من شدة الألم
بل : ندى ونضر
البلال : ما يبل به الحلق من الماء
جل : عظم
خلخل : حركه من موضعه
علب الشيء : وسمه وخدشه
فل (السيف) : كسره
فلخ : شق
وليمة : طعام العرس

أضت عند الولادة : بكت من الألم
بض (البدن) : رق ونضر
بضت (العين) : دمعت
البضاضة : البقية القليلة من الماء
جض : مشى مشية فيها تبختر
خضخض : حرك ورجرج
عضب الشيء : قطعه، وشقه
فض (خاتم الكتاب) : كسره وفكه
فضخ : كسر وشق
وضيمه : طعام المأتم

(جـ) ض / ل كآخر صوت في الكلمة

الرحل : ما يوضح على ظهر البعير
رفل (ثوبه) : أرفله أو وسعه
ركل (المركل من) الدابة : حيث

الرحض : القرية البالية
رفض الوادى : اتسع
ركض : (المركض) جنب الدابة حيث

يركلها	يركض أي يرفس
رمل (النسج) : رققه	رمض (النصل) : حدده
قايله : عاوضه وبادله	قايضه : بادله سلعة بسلعة

إن هذه المجموعة الكبيرة من الأمثلة التي فيها تبادل بين (اللام) و (الضاد) ليست عشوائية. وقد خلص منها كورينته (OP. CIT.P.54) إلى هذين الاستنتاجين :

(١) ربما أورد أصحاب المعاجم الأمثلة التي فيها (لام) بدلا من (ضاد) من رواة ثقاة تعرضت لهجاتهم الى تغير الضاد القديمة فيها نحو لام.

(٢) أن أصحاب المعاجم كتبوا تلك الأمثلة باللام بينما هي في حقيقتها عبارة عن ضاد جانبية (الضاد القديمة)، لم يعد نطقها مألوفا لديهم، ووجدوا أن أقرب مرادف لذلك الصوت حسب عاداتهم النطقية، هو صوت اللام.

وكلا التفسيرين مقبول، أو لنقل إنهما احتمالان ممكنان. فبالنسبة للتفسير الاول فإن التحول من الضاد إلى اللام سيفقد الضاد صفة الرخاوة فقط. وإذاأضفنا إلى النطق الجديد الترقيق أي فقدان صفة الإطباق، فإن ذلك كله سيدخل في باب تسهيل النطق، أي اتباع مبدأ بذل الحد الأدنى من المجهود.

أما التفسير الثاني فهو مبني على حقيقة لغوية وهي أن الإنسان الذي يسمع صوتا لغويا ليس له نظير مطابق في النظام الصوتي للغته الام، فإنه يفسر هذا الصوت طبقا لأقرب شبيه له في لغته. من ذلك مثلا أن العربي الذي يسمع الصوت الوسيط الاحتكاكي المهموس، أي الصوت (C) كما في النطق السويسري للكلمة الألمانية (ich)، فإنه يربطه بصوت الشين، بل ينطقه شينا.

٥/ ٣ نريد أن نخلص من هذا العرض إلى أن ما يميز الضاد في اللغة العربية قديما أنها كانت صوتا جانبيا احتكاكيا. وهذا الصوت الجانبي الاحتكاكي المجهور ( ) موجود في اللغات الجنوبية (انظر الفقرة ٥/ ١ من هذا البحث).

وهو موجود كذلك في لغة اسمها (أوبيخ) (ubykh) (من المجموعة السيركازية)، ونصادفه كذلك في عدد من اللغات الإفريقية مثل : ساندوى sandawe ، وبورا .Bura ومارغي Margi .

أما النظير المهموس لذلك الصوت ( ) ، أي الضاد الضعيفة، فموجود في لغات كثيرة من أهمها : الويلزية والآيسلندية، وفي الكباردية (من مجموعة اللغات القوقازية)، وهو موجود في بعض اللغات الإفريقية مثل : الزولو والشونا، ونجده كذلك في عدد من اللغات الهندية ـ الأمريكية مثل : الأباشي Apache، والوشرام Wishram والنوتكا Nootka .

إذن فالضاد الجانبية ليست خاصة باللغة العربية. ومن ثم فإن المقولة المشهورة التي تصف اللغة العربية بأنها (لغة الضاد) تصدق ـ كما أرى وكما يؤيده البحث المقارن ـ على الضاد العربية المعاصرة وليس على الضاد القديمة، لأن الضاد المعاصرة صوت فريد (صوت لثوي ـ أسناني انفجاري مفخم مجهور). ولاتوجد بالفعل في لغة من لغات العالم غير اللغة العربية وبهذا نستطيع أن نعتبر اللغةالعربية بحق «لغة الضاد».

وقد بقيت الضاد الجانبية دون تغيير في العربية الجنوبية، كما بقيت فيها أصوات أخرى من العربية القديمة. ومن هنا فإن دراسة اللغات العربية الجنوبية تصبح ضرورة ملحة، لما لها من أهمية في إلقاء الضوء على جوانب من الفصحى القديمة.

٦ ـــ الضاد الجانبية في اللغات العربية الجنوبية :

٦/ ١ تنتظم اللغات العربية الجنوبية مجموعتين رئيسيتين : المجموعة العمانية ومن أهم لهجاتها : الشحرية (وتنتشر في إقليم ظفار) ، ويوجد نمط مختلف عنها اختلافا يسيرا في جزر كوريا موريا، والحرسوسية وهي لهجة قبيلة الحراسيس، والبطحرية (والبطاحرة جماعة يسكنون شرق ظفار). والمجموعة الحضرمية ويمثلها : المهرية، لهجة إقليم المهرة.

وهذه اللهجات متقاربة وتشترك في جملة خصائص لانريد التطرق لها(١). والذي يهمنا أن نركز عليه هنا هو تأكيد الباحثين الغربيين (وفيهم الأساتذة الجامعيون والدبلوماسيون والرحالة) على وجود الصوت الجانبي ( ) في هذه اللغات ومن اللافت للنظر أنه في كثير من الأحيان يكون هذا الصوت في تلك اللغات مقابلا للضاد في الكلمات العربية الفصيحة، كما يتضح من الأمثلة التالية التي سجلتها من كلام مواطن من إقليم المهرة، ولكنه على ألفة أيضا ببعض لهجات المجموعة العمانية(٢).

الكلمة في العربية الجنوبية المعاصرة	المقابل في العربية الفصحى
- efor	ظفار
me rah	ضرس (الطواحن)
ob	ضب
bot	اضبط (خذ)
ahk	ضحك
ar	أرض
a ɣn	أسرة (ظعن)
ammak	ضممت (وجدت)
i	ضل (تاه)
e:f	ضيف

(١) تقدم كتابات الأستاذ المرحوم جونستون تحليلات جيدة لهذه اللغات انظر في ذلك (Johnstone 1975) والمراجع المذكورة هناك.

(٢) هو السيد / سالم علي محيسن. لاحظ بالمناسبة اندماج الظاء والضاد في المهرية.

إن هـذه الأمثلة تـوضح لنا بشكل جلي النطق الجانبي للضـاد، انظر الصـورة الطيفية في الاشكال (٤) و (٥) و (٦). وقارن بينهـا وبين الصور الطيفية للضاد الجانبية في العربية القديمة كما تظهر في نطقي أنا في الأشكال (٧) و (٨).

٧ — أدلة أخرى على النطق الجانبي للضاد :

٧/ ١ نريد في هذا القسم أن نقدم مجمـوعة من القرائن التي تقدم سندا لما نحن بصدد توضيحه. وهذه القرائن تنقسم إلى قسمين : القسم الأول منها عبارة عن كلمات تتبادل فيها الضـاد الجانبية مع أصوات أخرى احتكاكية ــ جانبية والقسم الثاني يتناول الكلمات العربية المحتوية على ضاد والتي استعارتها لغات أخرى من العربية.

٧/ ١/ ١ يورد صاحب تاج العـروس كلمة «مضط» كنطق في كلمة «مشط»، ويقـول عنها : «قـال الكسائي هي لغـة لربيعـة واليمن يجعلون الشين ضـادا بين الشين والضـاد غير المخالصـة، أي ليست بضـاد صحيحة ولا شين صحيحـة. ويقولون أيضا : اضطر لي مثل اشتر لي».

والشق الأول من كلام الزبيدي يدل على أنه يعرف أن الضاد الصحيحة ينبغي أن تكون صـوتا جانبيـا مجهورا، وهو قـد سمع صوتـا قريبا من الضـاد، أي فيه صفة الجانبيـة، وقريبـا كذلك من الشين أي فيه صفـة الرخـاوة والهمس، وهذا الصوت الذي يحاول فيه الزبيدي تقريبـه إلى القارىء هو الشين الجانبية في العربية الجنوبية، أي (s) . ولازال هذا الصوت مـوجودا في المنظومة الصوتيـة للعربية الجنوبية المعاصرة. أما مثاله الثاني فهو استطراد توضيحي لكلامه السابق. وورد في تاج العروس كذلك : «بيش الله وجهه وسرجه، بالجيم ، أي بيضه وحسنه» :

٧/ ١/ ٢ ويورد رابين (Rabin 1951 : 33) مثـالين آخـرين فيهما تبـادل بين الضاد والشين هما : اللوش في اللوض، ونشا في نضا.

ويـذكـر رابين أن هـذا النطق نسـب إلى اليمن في المراجع التي أوردت هـاتين الكلمتين. وهـذه الإشـارة تبين لنا أن الضـاد الجانبيـة كـانت متأصلـة في النطق

العربي الجنوبي.

٧/ ٢/ ١ نجد الضاد في بعض الكلمات التي اقترضتها بعض اللغات من العربية تتحول إلى لام. من ذلك ما ذكره كانتينو (١٩٦٦ ــ ٨٧) من أن الضاد العربية قد تحولت في الأسبانية الى (ld) كما في قولهم : (al-calde) أي القاضي، و (al-bayalde) أي البياض، و (ravalde) أي ربض، و (al-dava) أي الضبة(١).

٧/ ٢/ ٢ ويذكر فولرز (Vollers 1892 : 145 fn) أن في اللغة الماليزية تتحول الضاد العربية الى (d') أو (l) . وفي جزيرة ماندناو يتحول نطق الصوت إلى(l) ومن تلك الكلمات : «ريالت» أي رياضة وملرت «ملرت» أي مضرة و «دلة» اي ضمة و «هادلر» أي حاضر.

٧/ ٢/ ٣ وفي دراسة لغرينبيرغ عن الكلمات العربية المقترضة في لغة الهاوسا، يرد هذا المثالان (Greenberg 174: 88) : (al-kali) أي القاضي، و (hayla) أي : حيضة.

وهذه الأمثلة جميعها واضحة، ولكن قيمتها العلمية في سياق حديثنا هذا ستزداد لو أننا كنا نعرف تاريخ دخولها في تلك اللغات. فنحن لا نستطيع أن نجزم الآن ما إذا كان نطق تلك الكلمات باللام يعني أن تلك الكلمات كانت تنطق من قبل أبناء اللغة العربية بضاد جانبية في فترة دخولها تلك اللغات، أم أن ذلك التحوير مجرد مسلك لجأت إليه تلك اللغات التي اقترضت هذه الكلمات من العربية؟ وأعتقد أن هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد من البحث.

٨ ــ الخلط بين الضاد والظاء :

٨/ ١ قدمت لنا الصفحات السابقة صورة واضحة عن كيفية نطق الضاد الجانبية حيث إن صفتها النطقية يمكن أن توصف كما يلي : «صوت لثوي - أضراسي ، احتكاكي مفخم، مجهور» وهذه الملامح المميزة distinctive feature

(١) هذا نص مشهور، وقد استشهد به كذلك رمضان عبدالتواب (١٩٧١ : ١٢) وأورد الكلمة الأولى فقط.

جعلت هذا الصوت وحدة صوتية مستقلة في المنظومة الصوتية للغة العربية. ولكنها من جانب آخر جعلتها تبدو قريبة الشبه بصوت الظاء من حيث الأثر السمعي(١). ويتضح ذلك حينما نقارن الصورة الطيفية لكلمة (ظل)، الشكل (٩)، بالصورة الطيفية لكلمة (ضل)، بضاد جانبيه الشكل(١٠)، ونلاحظ في الصورتين كيف أن الصوت الاحتكاكي يترك أثرا واضحا في الصورة الطيفية، لأن تيار الهواء لايتوقف أثناء أدائها، وذلك بعكس الأصوات الانفجارية أو الوقفية التي تتميز بانحباس مجرى الهواء في مرحلة الاغلاق. والبياض في الصورة الطيفية يعكس ذلك (انظر الشكل رقم ١١). والملمح المسئول عن إحداث هذا التداخل بين الصوتين هو بلا شك «الجانب الاحتكاكي». وبهذا فقد أدى هذا التداخل الصوتي إلى وضع مضطرب هو عبارة عن وجود نطقين متشابهين لوحدتين صوتيتين لكل منهما وظيفتها المستقلة. ومن المرجح أن هذا الخلط قد بدا مع توسع الدولة الإسلامية ودخول عناصر كثيرة غير عربية ضمن الدولة الإسلامية التي كانت اللغة العربية هي لغتها الرسمية. «وعلى الرغم من عدم وجود نقوش أو وثائق مكتوبة تعود إلى عصر مبكر من حياة اللغة العربية، فإن الوثائق الإسلامية المبكرة التي وصلت إلينا وما في مؤلفات القرنين الثاني والثالث الهجريين وما بعدهما تشير إلى وجود خلط صوتي بين الضاد والظاء. فهناك وثيقتان مكتوبتان على البردي، الأولى وجدت في الفسطاط وتعود إلى سنة ١٠١ هـ (٧٢٠م)، وفيها نجد الظاء قد أبدلت كتابة بالضاد في كلمة : احفظ، إذ كتبت : احفض والوثيقة الثانية وجدت في الفيوم وتعود إلى سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م)، وفيها حدث العكس، إذ أبدلت الضاد ظاء في كلمة : فضل، اذ كتبت : فظل» (المعيبد ١٩٨٦ : ٥٧٦). وكذلك سجلت المصادر العربية «حالات متعددة لهذا الخلط بين الصوتين نطقا وكتابة. ونشير إلى حالة ذكرها ابن عذارى عن محمد بن الأغلب (توفى ٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) أمير أفريقيا (تونس)

(١) من الطريف أنني حينما أسمع زميلا لغويا الشريط المسجل عليه كلمات مهرية ينطق سالم علي محيسن، أو أقوم أنا بنطق الضاد الجانبية، وأطلب من الزميل أن يعيد على مسمعي الصوت الذي سمعه فإنه يقوم بنطق صوت هو صوت الظاء بلحمته وسداه، وإذا كان الأمر كذلك من اللغويين. فكيف مع غير اللغويين وغير المتخصصين ؟.

الذي اعتاد أن يكتب : ضبي، بدلا من : ظبي» (المرجع السابق).

وهناك حكاية رواها أبوعلي القالي ، حدثت في عهد عمر بن الخطاب، وحكاية أخرى رواها الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في البيان والتبيين (أوردهما رمضان عبدالتواب ١٩٧٠ : ١٦). وهما تكشفان عن وجود خلط بين صوتي الضاد والظاء. وفي القرن الثامن الهجري نجد ابن الجزرى (ت ٨٣٣هـ) يصور هذا الخلط بين الصوتين بصورة دقيقة فيقول (النشر في القراءات العشر ١/ ٢١٩) : «والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإن ألسنة الناس فيه مختلطة، وقل من يحسنه. فمنهم من يخرجه ظاء، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه الزاي، وكل ذلك لايجوز».

ولم يقتصر الاضطراب النطقي بين هذين الصوتين على المشرق العربي، بل يبدو أن المغرب العربي كان يعاني من نفس المشكلة، فنحن نجد ابن مكي الصقلي (ت ٥٠١هـ/ ١١٠٧م) يتعرض في (تثقيف اللسان) للأخطاء اللغوية التي كان العامة يرتكبونها في عصره. ومن تلك الأخطاء التي ذكرها خلطهم بين الضاد والظاء ليس في لغة التخاطب فقط، بل في قراءاتهم للقرآن كذلك. ولم يكن يحقق النطق الصحيح إلا فئة قليلة من الناس يسميهم ابن مكي الصقلي بالحاذقين الثاقبين، وذلك في موقف لغوي معين وهو قراءة القرآن. يقول المؤلف في فصل عنوانه الضاد والظاء (ص ٩١) : «هذا رسم قد طمس، وأثر قد درس من ألفاظ جميع الناس، خاصتهم وعامتهم، حتى لانكاد نرى أحدا ينطق بضاد ولايميزها من ظاء.

وإنما يوقع كل واحدة منهما موقعها، ويخرجها من مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير. فأما العامة وأكثر الخاصة، فلا يفرقون بينهما في كتاب ولا قرآن».

وبعد أن أورد ابن مكي الصقلي الكلمات التي تكتب بالظاء وتلك التي تكتب

بـالضاد ومعـايير التفرقـة بينهما، اختتم فصلـه بعبارة تتضمن شيئـا من الترغيب والترهيب في نفس الـوقت (ص ٩٤) : «وقـد قال أهل العلم : لاتجوز الصـلاة خلف من يبدل الضاد ظاء في فاتحة الكتاب، ولا صـلاته هو إذا وجد من يأتم به فتركه وصلى وحده».

وهناك إشـارات كثيرة أخرى (العـربية ليـوهان فـك : ١١١ فما بعد) تقـودنا إلى استخلاص حقيقة عامة وهي أن نطق الضـاد الفصيحة كما وصفها سيبويه، كان صـعبا. ويكـون مـن الطبيـعي عـندئذ أن نعتـبر صـعوبة النطـق سـببا جوهريا من أسباب تغير الضاد. والواقع أن كانتينو، كما نقـل عـنه كورنيتهe (corrient 51 : 1978)، يعزو تغير الضاد إلى صعوبة نطقه فحسب. ولكن صعوبة النطق لم تكن السبب الوحيد. فهناك أيضا عامـل التشابه ما بين الضاد والظاء في بعض الملامح الصـوتية. وهنـاك إمكانية انشطـار الضاد إلى صـوتين. صوت جـانبي احتكـاكي مفخـم، وآخـر جـانبي غير احتكـاكي مفخم. أو صـوت جـانبي احتكاكي مفخم، وآخر احتكاكي مفخم.

٨/ ٢ وقد حـاول اللغويـون العرب تصحيح هـذا الوضع المضطـرب ويشهد على ذلك كثـرة المؤلفات في التراث العـربي التي تحاول إرشاد المتعلمين إلى كيفيـة التفريق بين الصـوتين(١) وكانت هـذه المؤلفات تهدف كذلك إلى غـاية معلـومة وهي الحفاظ على الضاد كوحدة صوتية وظيفية ومنع اندماجها في الظاء.

إن الدراسة التـاريخية لميكانيكية التغير الصوتي تـرينا أنه في الحالات التي يتغير فيهـا صـوت بحيث يؤول نطقـه إلى شبيـه بصـوت آخر مستقل (كمثـال الضـاد والظاء)، فإن هناك ثلاثة احتمالات إزاء هذا الوضع (راجع : Goyvaerts 1975 :(68):

الاحتمال الأول : أن يتداخل الصوتان فيحل أحدهما محل الآخر تدريجيا.

الاحتمال الثاني : أن يقضي أحـد الصوتين الآخـر فيحل محله، ويهمـل الآخر

---

(١٧) وقد بدأت المحـاولات الأولى في القرن الرابع الهجري، ثم ازدادت وتنوعت فيما بعد. انظر في ذلك مقـالة محمد جبار المعيبد (١٩٨٦).

إهمالا تاما.

الاحتمال الثالث : أن يبقى الصوتان، ولكن ينشطر أحدهما إلى صوتين اثنين.

والاحتمالات الثلاثة تقود إلى نتيجة واحدة وهي ضرورة إعادة ترتيب النظام الصوتي في النهاية، مع الاختلاف في التفاصيل بالنسبة لكل حالة.

والواضح أن العربية لم تكن لتتحمل أيا من الاحتمالات الثلاثة وذلك لتأصل صوتي الضاد والظاء في البناء الصوتي للغة، ولأن إعادة ترتيب النظام الصوتي ستترتب عليه خطورة بالغة بالنسبة للغة ترتبط بكتاب مقدس هو القرآن الكريم، والحديث الشريف وبالتراث الفكري المتواصل. ولذلك فإن تغير صفة الضاد كانت نتيجة طبيعية في هذا الوضع.

٩ — متى تغير نطق الضاد وكيف انتشر النطق الجديد ؟

٩/ ١ كانت الضاد ـ إذن ـ في أصلها صوتا لثويا ـ أضراسيا، احتكاكيا مفخما، مجهورا، وتحولت إلى صوت لثوي أسناني، انفجاري، مفخم، مجهور، فمتى حدث هذا التغير في النطق؟ يذهب مارتينيه (Martinet 1962 : 136) إلى أن الناس لايكونون واعين بالتغير الذي يحدث في لغتهم. وهذه الفكرة صحيحة لو فسرناها على أنها تعني أن التغيرات الصوتية تتم عادة ببطء بحيث لايشعر بالتغير إلا الأجيال المتعاقبة وإذا كانت هذه طبيعة التغيرات الصوتية فمن الصعب أن نحدد تاريخا دقيقا لحدوث التغير. بالاستعانة ببعض الإشارات التي وردت في كتب القدماء يمكننا تلمس الطريق وتحديد تاريخ تقريبي.

يذكر ابن الجزرى، وهو من مؤلفي القرن الثامن الهجري، في كتابه التمهيد، كما أورده عنه إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥٠) أن المصريين وبعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة(١). وهذا يعني أن هذا الصوت كان قد تطور واتخذ

(١٨) لاحظ أن الطاء التي وصفها سيبويه مجهورة، بينما الطاء الحديثة مهموسة، وسبب جهرها، فيما أرى انها كانت مهموزة Glottalised . وفي المادة اللغوية من المهرية التي سجلتها من كلام السيد/ سالم علي محيسن تبدو الطاء مهموزة. ولذلك فقول إبراهيم أنيس (١٩٦١ : ٥١) «أن ما كان يسمى بالطاء كان في الحقيقة ذلك الصوت الذي ننطق به الآن ونسميه ضادا «غير صحيح إطلاقا، لأن هناك فرقا بين الطاء المهموزة والضاد الحديثة في ميكانيكية النطق وفي الخصائص السمعية.

مـا يشبـه نطقـه الحالي في مصر والمغـرب العـربي في تلك الفترة. وحينما نتفحص الرسـائل التي كتبت في الفرق بين الضاد والظـاء (راجع المعيبد ١٩٨٦ : ٥٩٠) سنجد أن من أواخر الـرسائل المصنفة في هذا الحقل هي رسـالة يحيى بن عمر بن محمد المكي القرشي (ت ٨٨٥هـ). وهذا قد يوحي بأن النطق الجديد قد انتشر في الأقاليم الإسلامية. وأن الخلط بين الضاد والظاء قد بدأ يتقلص.

ومن الطريف أنه بعـد أن استقر الوضع، وشاع النطق الجديـد للضاد، الذي هـو نطقنـا الحالي لها، حاول بعض المتـأخرين مـن اللغويين محاربـة هـذا النطق والعـودة إلى النطق القـديم الذي وصفـه سيبـويـه ويتجلى هذا الاتجاه في كتـاب مخطوط لعلي بن محمد بن خليل (ت ١٠٠٤هـ) حيث «بنى المؤلف كلامه على رد من ينطق الضـاد من المصريين نطقا ممـزوجا بـالدال المفخمـة أو الطاء، محاولا في الوقت نفسه إثبات أن نطقها قريب من الظاء» (المعيبد ١٩٨٦ : ٦١٥).

٢/٩ وكما أن تغير الأصـوات لايحدث فجأة، فـإن انتشـار النطق الجديـد لايكون سريعا حاسما، وإنما يأخذ شكل الموجات او الدوائر التي تتسع تدريجيا. ويرجح الأستاذ كورنيته (Corriente 1978 : 51) أن يكون النطق الجديد للضاد قد ابتدأ في شمال الجزيـرة العربية، ربما في نفس المنطقة التي نشـأت فيها النبطية. ثم انتشر النطق الجديد تدريجيـا على شكل موجة. وواجه هـذا النطق مقاومة من العرب الجنوبيين.

هـذا الـرأي مبني على ما ورد في دراسـات المستشرقين من «أن إبـدال الضـاد بالدال كان من خصـائص النبطية. فقد روى أن زامر هارون الرشيـد : برصوما (يـدل اسمه على أصلـه الآرامي) المنتمي إلى الطبقـات الـدنيا مـن سكان سـواد الكوفـة، كان يقـول: أبيد بدل : أبيـض» (فك ١٩٨٠ : ١١٢). وبهذا يكون النطق الجديد قـد ابتدأ من شرقي العـراق في فترة مبكرة، حتى إذا ما كـان القرن الثامن الهجري، نجد أن هذا النطق قد انتشر في مصر والمغرب.

أما ما ذكره كورنيته عن مقاومة العرب الجنوبيين للنطق الجديد، فالواضح أنه

إشارة إلى عدم استجابتهم لهذا النطق، واحتفاظهم بما كان ولا يزال موجودا في تراثهم اللغوي.

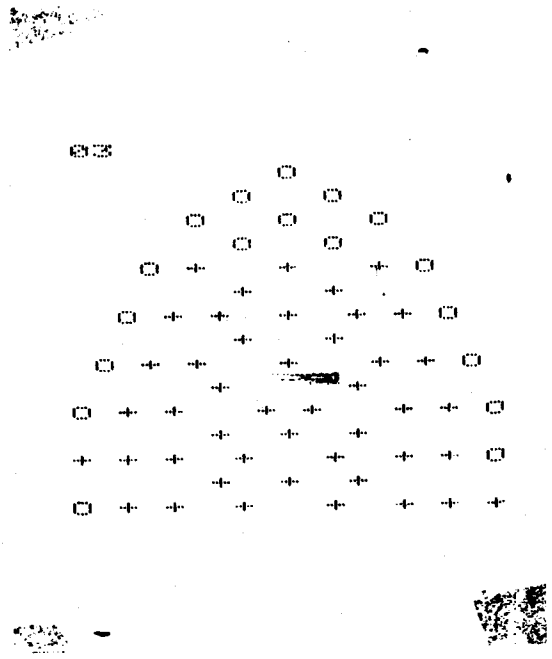

شكل رقم (١)

موضع إتصال اللسان باللثة في نطق الضاد الانفجارية

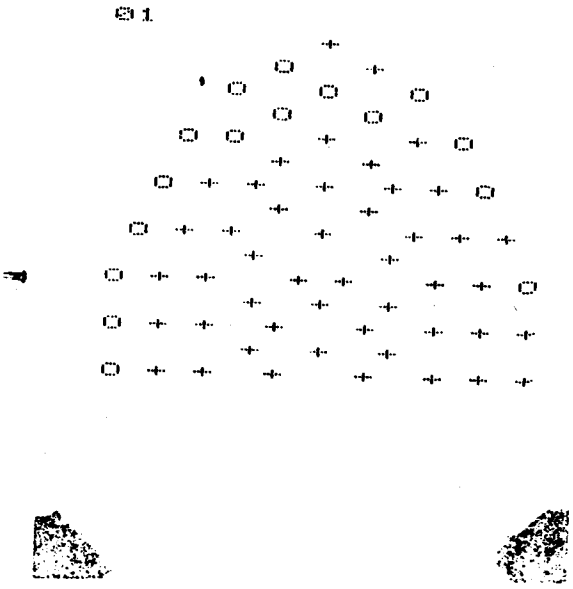

الشكل رقم (٢)

موضع اتصال اللسان بالحنك في نطق الضاد الجانبية

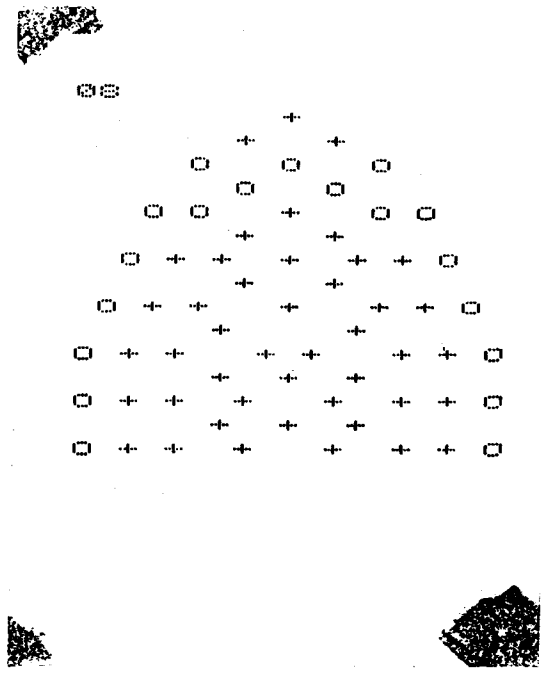

الشكل رقم (٣)

موضع اتصال اللسان باللثة في نطق اللام

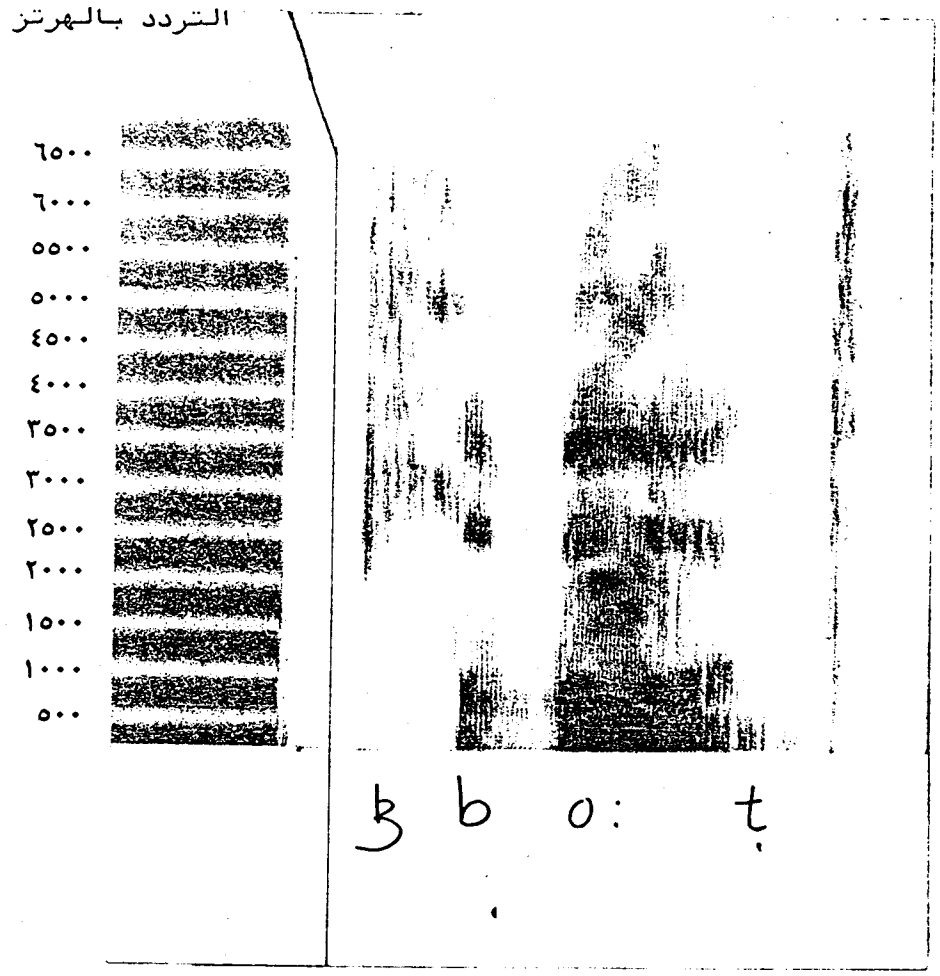

الشكل رقم (٤)

صورة طيفية لكلمة «ضبوط» في النطق المهري

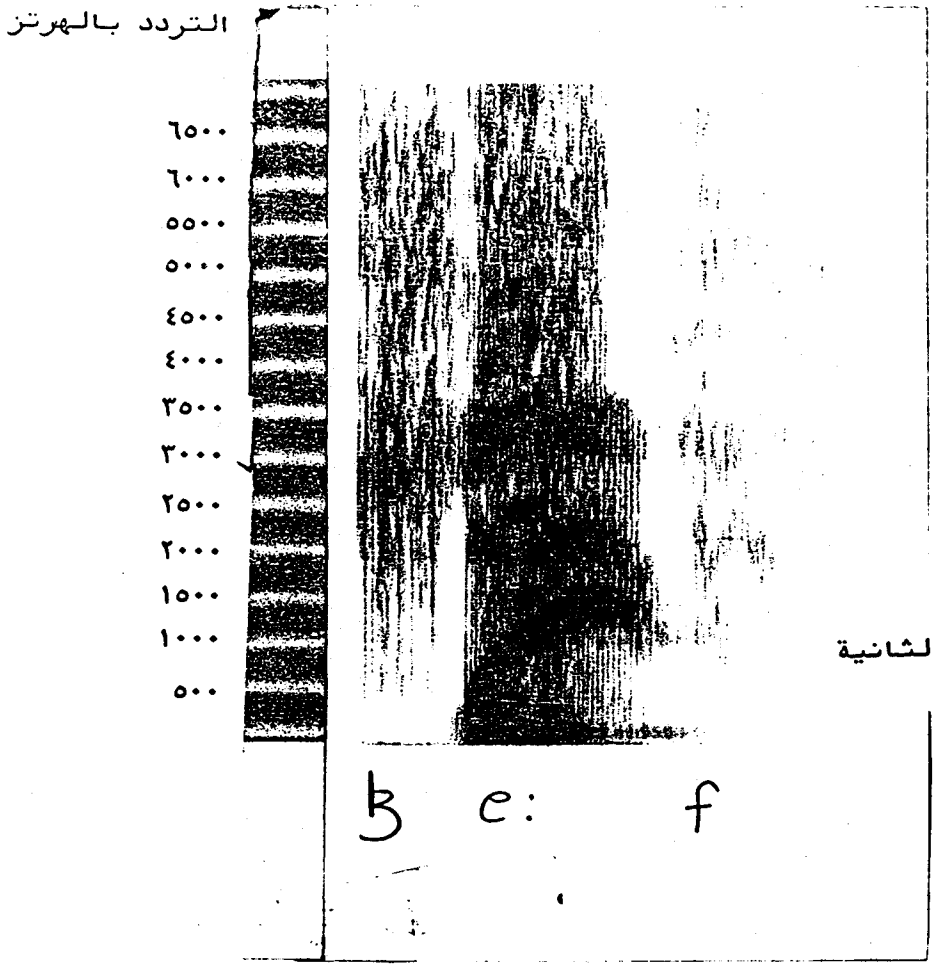

شكل رقم (٥)

صورة طيفية لكلمة «صنيف» في النطق المهري

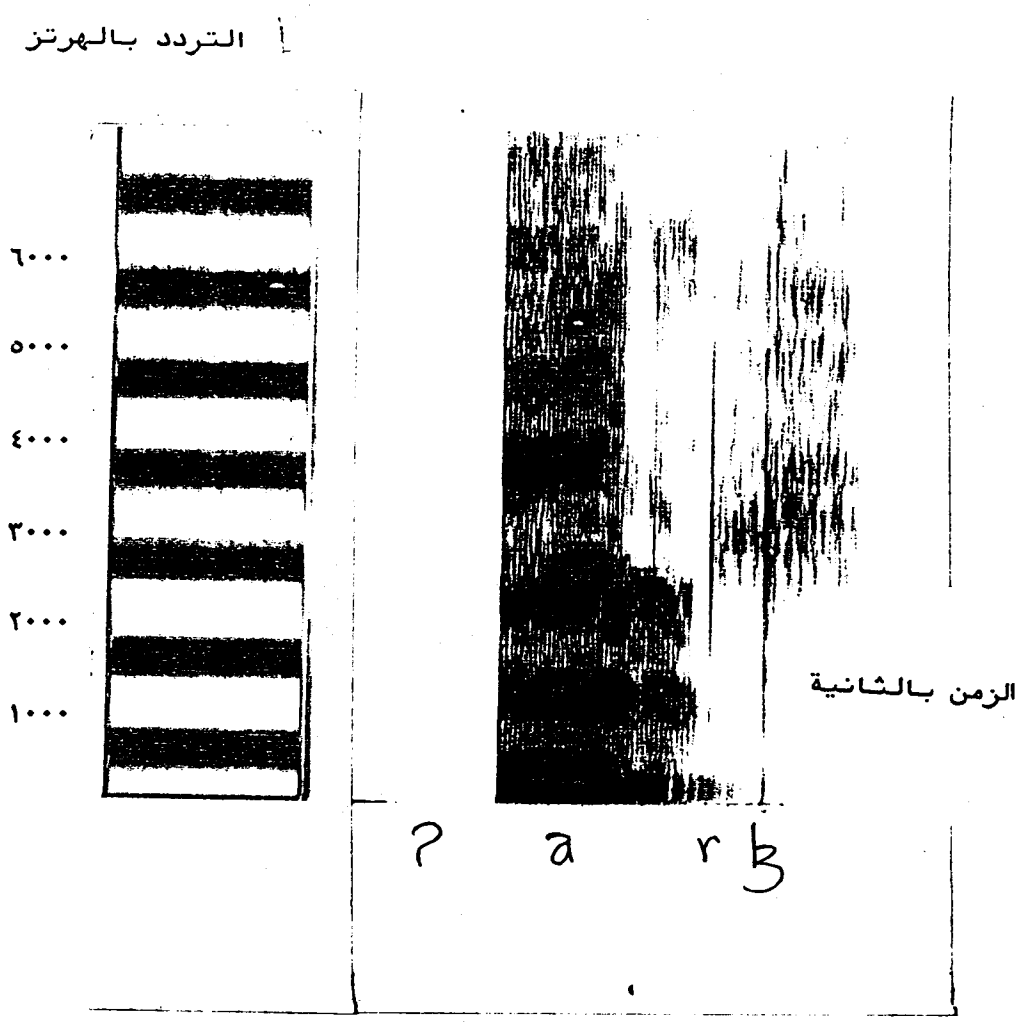

شكل رقم (٦)

صورة طيفية لكلمة «أرض» في النطق المهري

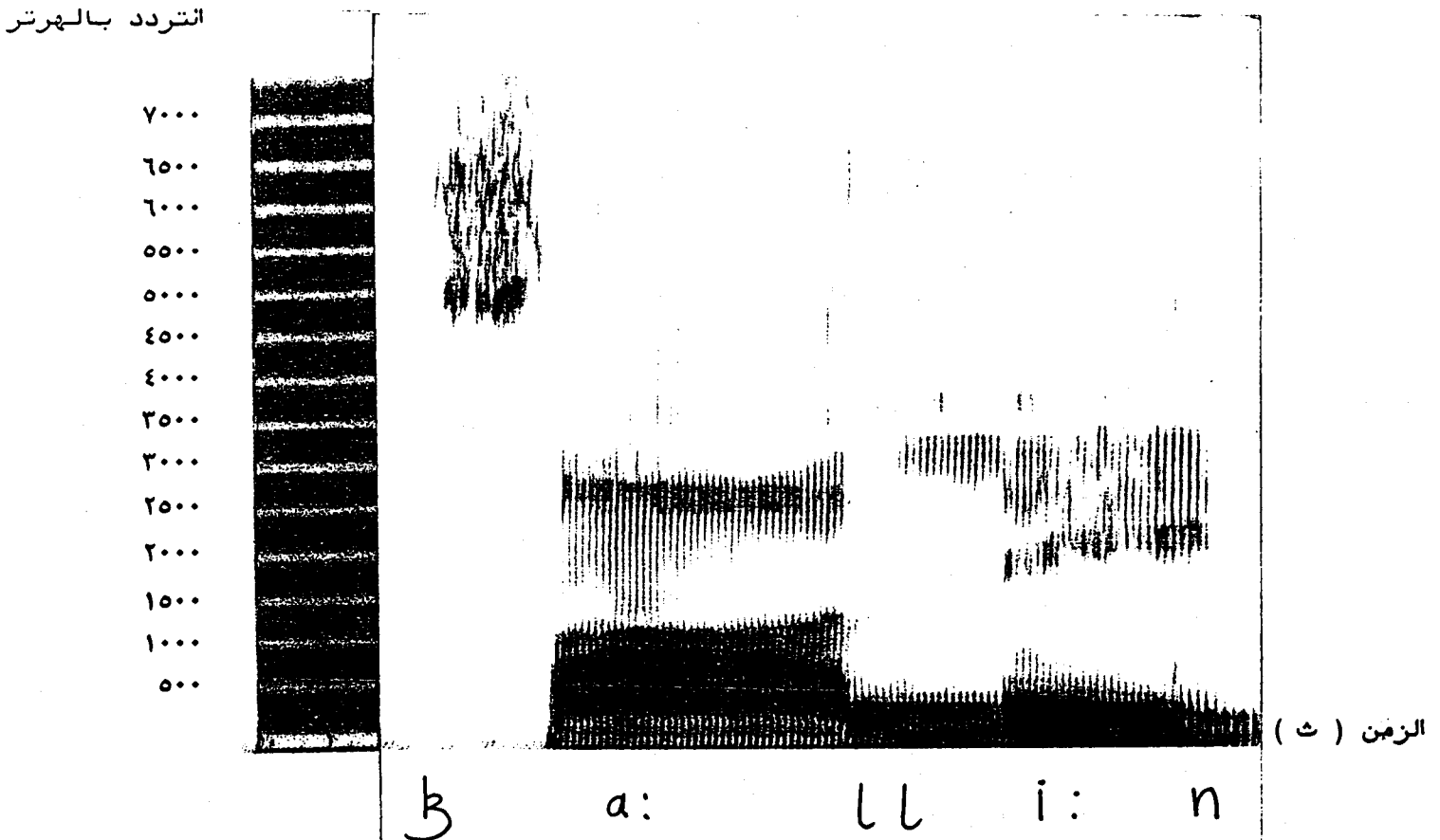

شكل رقم (٧)

نطق الكاتب لكلمة «ضالين» ـ بضاد جانبية

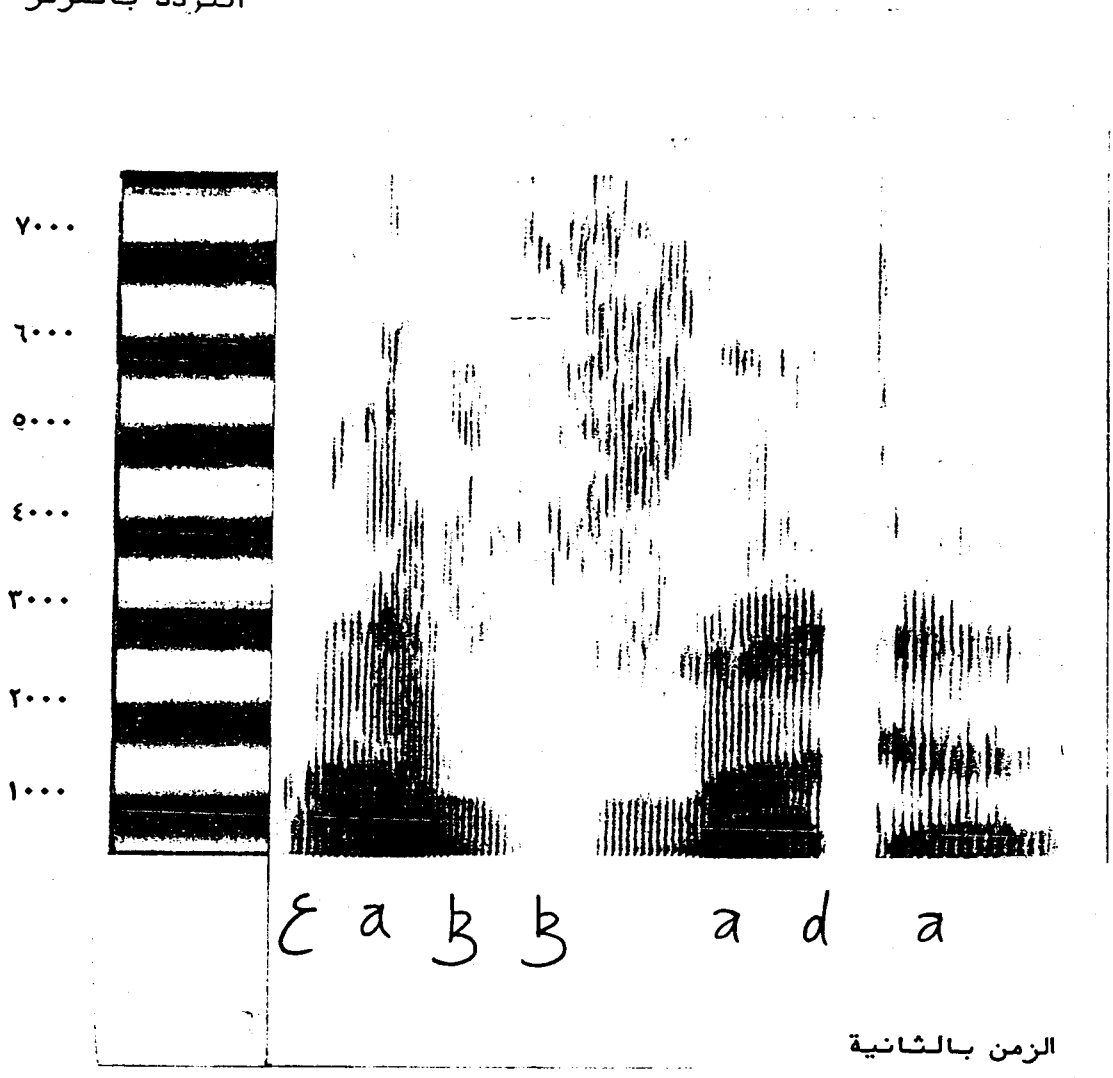

شكل رقم (٨)

نطق الكاتب لكلمة «عضد» ، بضاد جانبية

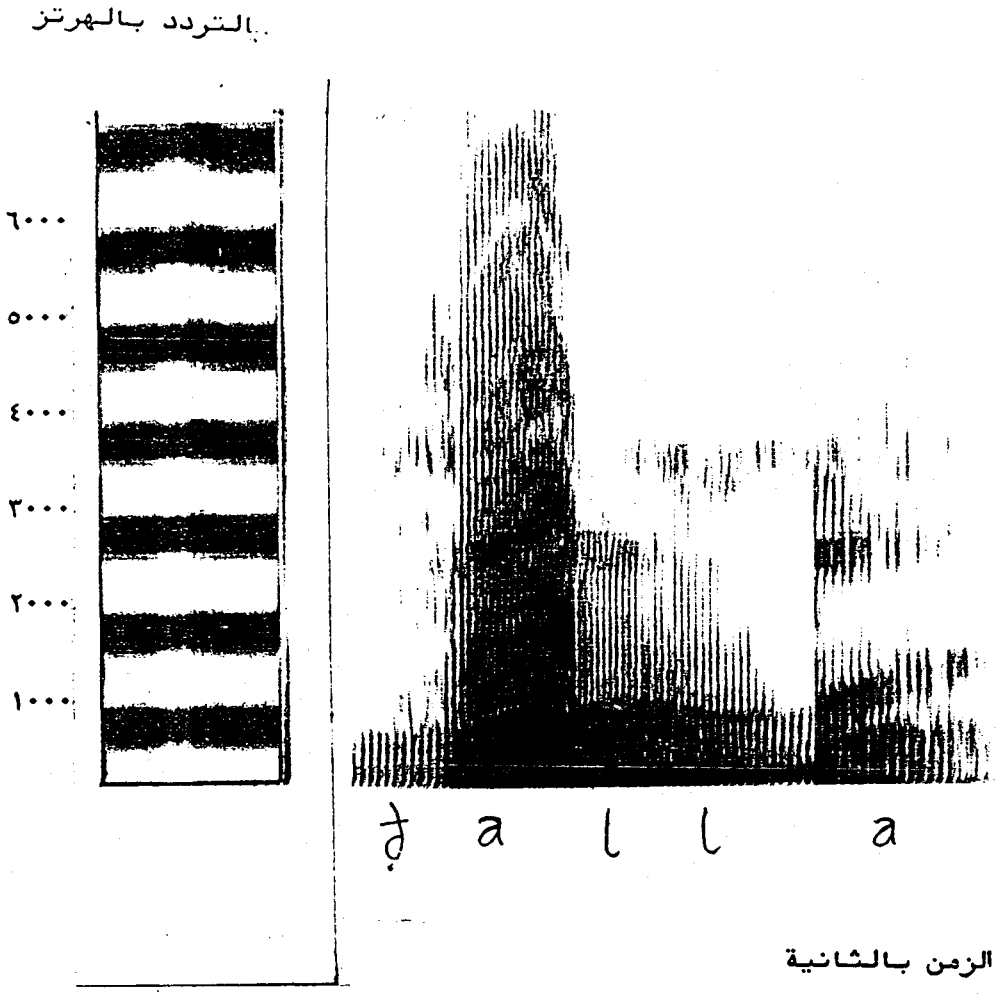

شكل رقم (٩)

صورة طيفية للظاء في كلمة «ظل»

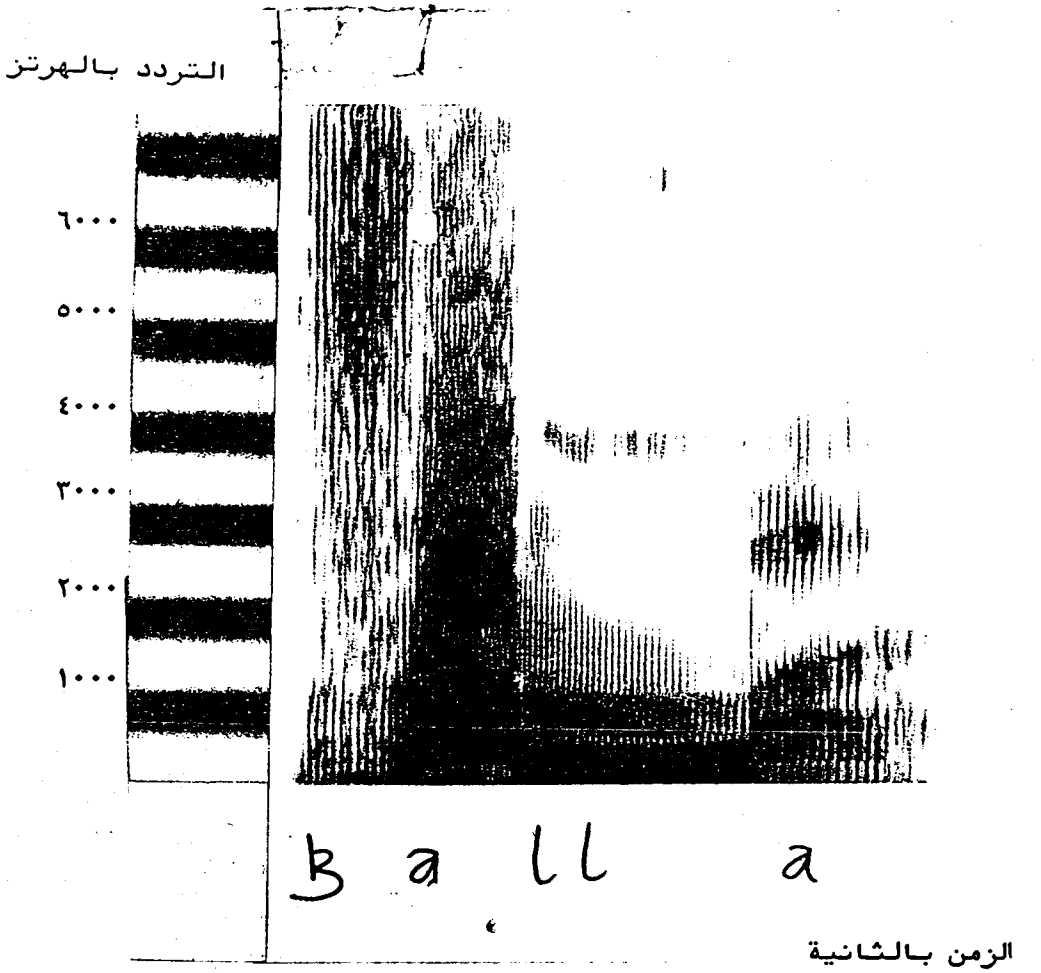

شكل رقم (١٠)

صورة طيفية للنطق الجانبي للضاد في كلمة «ضل»

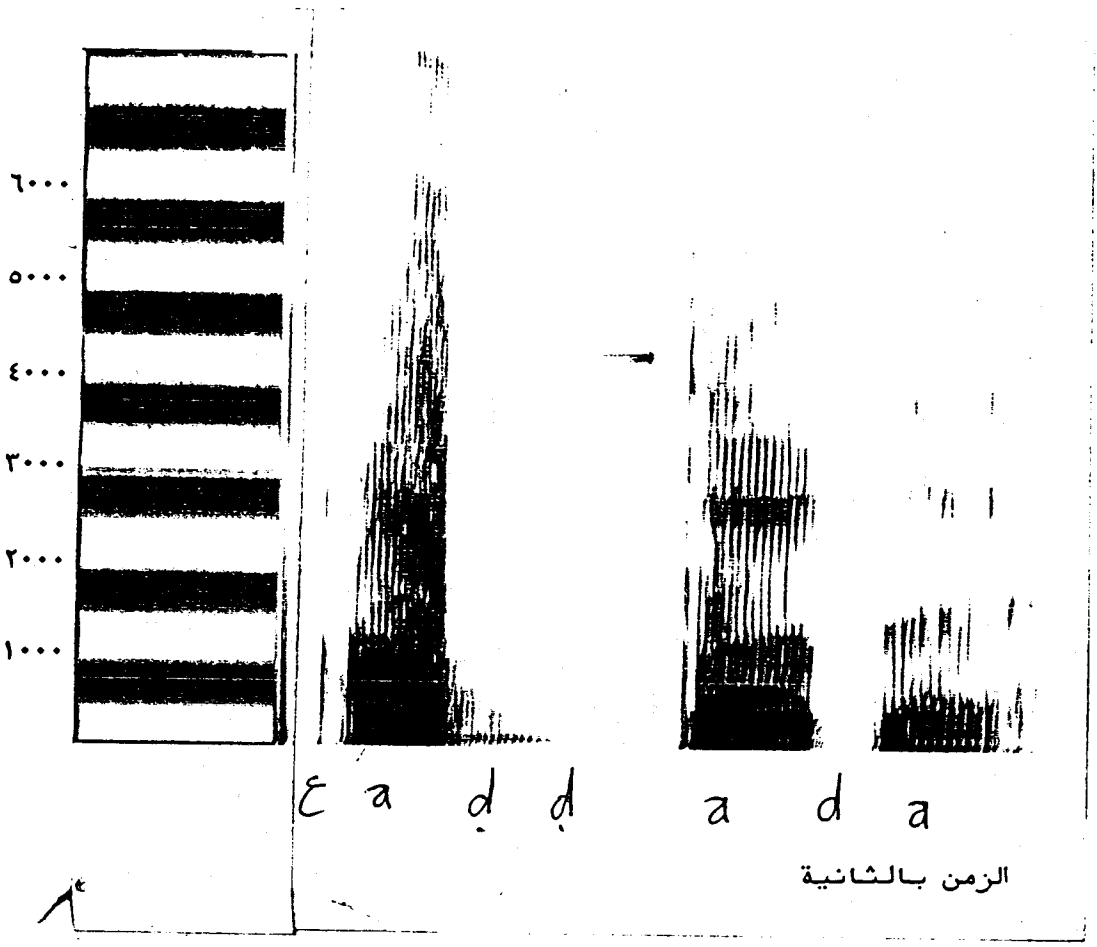

الشكل رقم (١١)

صورة طيفية للضاد الانفجارية كما في كلمة «عضد»

المراجع :

— إبراهيم أنيس (١٩٦١) «الأصوات اللغوية». دار النهضة العربية القاهرة. الطبعة الثانية.

— ابن الجزرى (د.ت) «النشر في القراءات العشر». دارالكتب العلمية، بيروت : لبنان.

— ابن مكي الصقلي (١٩٦٦) «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان». تحقيق الدكتور عبدالعزيز مطر ـ لجنة إحياء التراث الاسلامي، ج.ع.م.

— جان كانتينو (١٩٦٦) «دروس في علم أصوات العربية». ترجمه : صالح القرمادي. منشورات الجامعة التونسية.

— رمضان عبدالتواب. (١٩٧١) «زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء». لأبي البركات بن الأنباري (المقدمة). تحقيق رمضان عبدالتواب، طبع دار الامانة: بيروت.

— (١٩٨٢) «المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي». مكتبة الخانجى بالقاهرة. الطبعة الأولى.

— رفعت الفرنواني (١٩٨٦) «الأصوات وأثرها في المعجم العربي» مجلة دراسات عربية وإسلامية. الجزء الخامس. مكتبة دار الفكر العربي. القاهرة.

— سيبويه (أبوبشر عمرو بن عثمان) «الكتاب». تحقيق وشرح عبدالسلام هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥.

— صلاح الدين حسنين (١٩٨١) «المدخل إلى علم الأصوات». دار الاتحاد العربي للطباعة : القاهرة. الطبعة الاولى.

— فايز الداية (١٩٨٥) «علم الدلالة العربي». دار الفكر : دمشق.

— كمال بشر (١٩٧٠) «علم اللغة العام : الأصوات». دار المعارف بمصر.

— محمد جبار المعيبد (١٩٨٦) «كتب الضاد والظاء عند الدارسين العرب». مجلة معهد المخطوطات. المجلد الثلاثون، الجزء الثاني ص ص ٥٧٥ ـ ٦٣٤، الكويت.

— هنري فليش (١٩٨٣) «العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد». ترجمة عبدالصبور شاهين. دار المشرق : لبنان.

_ H. Blanc (1967) The Sonorous Vs. Muffled Distinction in Arabic Phonology in : To Honour Roman Jakobson.

Mouton: The Hauge, Vol.1 pp. 295 - 308.

_ D. Bolinger (1980) (Language the Loaded Weapon). Longman : London & New York.

_ W. Chafe (1970) (Meaning and the Structure of Language). University of Chicago press.

_ F. Corriente (1978) D.L Doublets in Classical Arabic as Evidence of the process of de-Laterisation of Dad and Development of its Standard Reflex.JSS, 23, pp. 50-55.

_ H. Fleisch (1965) (Dad). The Encyclopaedia of Isalm. New ed. Leiden : E.J. Brill.

_ A.C. Gimson (1970) (An Introduction to the Pronounciation of English).

Edward Arnold : London.

_ D.L. Goyvaerts (1975) (Present-Day Historical and Comparative Linguistics).

E. Story-Scientia: Antwerpen: Brussel.

_ J. Greenberg (1947) (Arabic Loan Words in Hausa). Word, 3, pp. 85-97.

_ R. Jakobson (1957) (Mufaxxama - The Emphatic Phonemes in Arabic).

in : E.C. Fudge (ed.) (Phonology). Penguin Book, 1970.

_ K.R. Jankowsky (1972) (The Neogrammarians) Moton: The Hague.

_ T.M. Johnstone (1975) (The Modern South Arabian Languages).

Afroasiatic Linguistics, 1/5, pp. 93-121.

_ P.Ladefoged (1975) (A Course in General Phonetics) Harcourt Brace Javanvich. Inc. New York.

_ A. Martinet (1961) (A Functional View of Language). oxford Universitu press.

_ C. Rabin (1951) (Ancient West-Arabian). London: Taylor's Foreign Press.

_ R.H. Robins (1967) (A Short History of Linguistics).

Longmans : London.

_ Karl Vollers (1893) (The System of Arabic Sounds as Based upon Sibaweih and Ib Yaish). The Transactions of the Ninth International Congress of Orientalists. 2, pp 130-154. London: Committee of the Congress.